كلمات في العقيدة

الكتاب الثامن

د. أمير الحداد

كلمات في العقيدة

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد للّه الذي بنعمته تتم الصالحات...

أحمده عز وجل حمداً لا ينقطع.. أحمده تعالى كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه... أحمده وأثني عليه كما أثني سبحانه على نفسه فإني لا أحصي ثناء عليه... عز وجل...

وأشهد ألا إله إلا اللّه وحده لا شريك له... يمنُّ على من يشاء من عباده بما شاء سبحانه.. وأشهد أن محمداً عبده ورسوله مَنّ علينا ببعثته فينا يتلو علينا آياته ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة...

وأصلي وأسلم على محمد وآله صلاة تلبي أمر اللّه عز وجل... وتكافؤ مكانة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة... وأدى ما أمره اللّه به للثقلين أجمعين...

أما بعد...

لقد مَنَّ اللّه على العبد الفقير لعفو ربه بأن أنجز هذه الحلقة الثامنة من سلسلة «كلمات في العقيدة» فله الحمد والشكر سبحانه وحده... وكما كان فيما سبق من أجزاء فإن هذا الجزء يتناول قضايا في العقيدة متنوعة: الإيمان باللّه وأسمائه وصفاته والإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر وإزالة الشبهات عن بعض الأمور التي انتشرت في زمننا هذا كالحجاب وانفتاح الدنيا.. والأحلام والرؤى.. والوسوسة... وغيرها.. وفي هذا الجزء لم ترد آية إلا وأوعزتها إلى المصحف الشريف ولم يرد

حديث إلا وذكرت حكمه وفق ما أورده أهل الاختصاص ولا أزعم أنه لم يفتني شيء. وكل ما يرجوه الكاتب لهذه الكلمات أن يدعو له من يستفيد وأن ينبهه لأخطائه من يواجه شيئاً منها وأن يعمل على نشر ما في هذا الجزء من علم صحيح من يتعلم منها ومن أراد أن يطبع هذا الكتاب أو ما سبقه من أجزاء لوجه الله فليفعل مأجوراً مشكوراً... وله الدعاء بالقبول والثواب...

وأخيراً لا تبخل على أخيك الكاتب بالدعاء له بالمغفرة والرحمة سواء في حياته أو بعد مماته... فهو الأحوج للدعاء وخاصة بعد فراق هذه الدنيا...

وأسأل الله العزيز الحكيم... أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم... لا رياء ولا سمعة وأن ينفعني به عند لقاءه إنه هو السميع العليم...

والحمد لله رب العالمين

كتبه.. أمير علي الحداد . الكويت

ذو الحجة ١٤٣١

نوفمبر ٢٠١٠

amir122@yahoo.com

رضيت بالله رباً

ـ هذه العقيدة ينبغي أن تكون مرجع كل مسلم.. حال ضعفه.. حال عجزه.. حال شكه.. يقول بقلبه ولسانه.. «رضيت بالله رباً».. فتنزل السكينة في قلبه.. ويزول الوسواس من صدره.

. هل وردت هذه العبادة في حديث صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ولماذا أتت بصفة الربوبية.. لا.. الألوهية؟!

كنت وصاحبي في زيارة أخ لنا قطع سفره لألم شديد أصابه فرجع إلى البلد لإجراء عملية جراحية في المرارة.

ـ جاءت عدة أحاديث صحيحة.. بهذا المعنى.. مثلاً: «**من قال: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة**» (السلسلة الصحيحة).. ورواية أخرى: «**من قال إذا أصبح: رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً، فأنا الزعيم لآخذن بيده حتى أدخله الجنة**» (السلسلة الصحيحة).. وكذلك جاءت للدعاء بعد الأذان.. فالحديث ثابت.. وجمع الحديث بين الألوهية «الله».. والربوبية «رباً».. وجاءت العبارة بالرضا عن الربوبية؛ لأن هذه الصفة «أي الربوبية».. هي المتعلقة.. بالخلق.. والرزق.. والعطاء.. والمنع.. والقضاء في شؤون الحياة.. وهذه الأمور هي التي تنغص على المرء عيشه.. مثلاً: إذا أصاب أحدنا مرض.. أو مصيبة.. أو ظلم.. أو مُنع حقاً.. فإنه يطرد كل ذلك بإعلانه الرضا عن قضاء الله.. وقبوله بالأمر من عند الله؛ فترتاح نفسه.. ويطمئن قلبه.

. ألم يرد هذا الحديث في معرض الوسواس.. بمعنى الحديث: «يأتي الشيطان فيقول: من خلق السموات.. الله.. من خلق الأرض.. الله.. من خلق الإنسان.. الله.. فمن خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليقل: رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً» هل هذا الحديث ثابت؟

ـ لا أعرف هذا النص.. ولكن النص الثابت.. عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**لن يبرح الناس يسألون عما لم يكن حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء.. فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا: الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد. ثم يتفل عن يساره ثلاثاً وليستعذ من الشيطان**» (البخاري).

ـ سبحان الله.. أنا والله جربت ذلك وشعرت بأن هذا الوسواس يتبخر.. ويزول تماماً.. بعد أن كان هماً.. بمجرد القول: لا إله إلا الله.. رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالإسلام ديناً.. هذه كلمة عظيمة تربط العبد بربه.. وتورثه الرضا.. والقناعة.. وراحة البال.. ويعلم أنه برجوعه إلى الله.. ولجوئه إليه.. في كل حين.. فإنه يرجع إلى ركن شديد.. إلى القوي العزيز.. العدل الرحيم.. الذي لا يظلم عبده ولا يخذله.. ويعطيه من غير حساب.. ويحميه من كل داء.. هذه العبارة تذكر الإنسان بربه.. إذا ضاقت به الدنيا.. وتكالبت عليه الهموم.. وتجمع ضده الأعداء.. فليقل موقناً: «**رضيت بالله رباً**».. و«**حسبي الله ونعم الوكيل**»، فإن كل ذلك يزول بإذن الله تعالى.

ذكر الله

عبادة سهلة، ميسرة، لا تتطلب وضوءاً ولا قبلة ولا جماعة ولا وقتاً، وأجرها طمأنينة في القلب، وتفريج كرب، وزوال هم، ورزق بلا إثم، من وفقه اللّه إليها عاش هنيئاً عزيزاً ومات مطمئناً وكان على منبر من نور يوم القيامة.. إنها: (**ذكر اللّه**).

ـ عن أبي الدرداء قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟**» قالوا: بلى يا رسول اللّه، قال: «**ذكر اللّه**» (صححه الألباني).

ولو لم يكن في فضل الذكر إلا قول اللّه تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ (البقرة) لكفى.

ـ وكيف يكون ذكر اللّه لعبده الذي يذكره؟

كنت وصاحبي في طريق عودتنا بعد حضور درس في فضل الذكر.

ـ ألم نتفق ألا نسأل: «كيف» في حق اللّه؟

ـ بلى.. ولكن أردت معنى الآية.

ـ الآية شرحها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الحديث القدسي: «**قال اللّه تعالى: أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني.. فإن ذكرني**

في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» (السلسلة الصحيحة) فهل هناك أوضح من هذا الشرح؟ ولا شك أن من ذكره الله فقد حُفظ وهُدي ووفق وأفلح في دينه ودنياه وآخرته.. واستمع إلى الحديث الآخر في المقابل: «**ما قام قوم عن مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا على مثل جيفة حمار وكان عليهم حسرة يوم القيامة.. فإن شاء الله عذبهم أو غفر لهم**» (السلسلة الصحيحة).

ـ وما المقصود بالذكر؟ أعني الأذكار التي وردت في الأحاديث.

ـ ذكر الله.. بما تحفظ وتعرف، سبحان الله ـ الحمد لله ـ استغفر الله ـ لا إله إلا الله ـ لا حول ولا قوة إلا بالله ـ سبحانه الله وبحمده سبحان الله العظيم..

قاطعني

ـ وأيها أفضل؟

ـ أفضلها ما كان من القلب، وقلته وأنت تعي ما تقول، وتردده فيورثك إيماناً وقرباً من الله تعالى.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أنه بعد الأذان أفضل الذكر: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة...**» وعند دخول المسجد: «**بسم الله اللهم صل على محمد، اللهم افتح لي أبواب رحمتك**»، وعند الأكل: «**بسم الله**».. وعند الانتهاء: «**الحمد لله**».. وعند الانتهاء من الصلاة.. أذكار الصلاة.. وهكذا.. أما على العموم،

فاذكر اللّه بما تشاء وبما تحب، حتى تُكتب من الذاكرين، ففي الحديث: «**إن خيار عباد الله من هذه الأمة الذين إذا رؤوا ذُكر الله...**» (السلسلة الصحيحة) أي إذا رأيتهم ذكروك باللّه عز وجل لمجرد رؤيتهم.

والذكر حصن المؤمن من كل شر يعلمه أو لا يعلمه من شياطين الإنس والجن؛ فمن ذكر اللّه خنس الشيطان عنده وضعف وسواسه، ومن لم يذكر اللّه عظم سلطان الشيطان عليه، فمن بات وقرأ آية الكرسي كان عليه من اللّه حافظ حتى يستيقظ، ومثل الذي يذكر اللّه والذي لا يذكر اللّه، مثل الحي والميت.. وأخيراً دعني أذكر لك آية أو اثنتين من كتاب اللّه.. جزاء من ينسى اللّه.

﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة: ٦٧)، ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ (الحشر: ١٩).

فقر الخلق إلى الخالق

يبدو أن في كل نفس بشرية جانب من الحاجة للشعور بالضعف فطرياً.. ولا سيما في لحظات الخلوة مع الذات..

صاحبي من المتخصصين بعلم النفس ويسعى أن يدعم النظريات التي تعلمها بقواعد شرعية من القرآن والسنة.

- أتأمل كثيراً قول الله عز وجل.. ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ (فاطر).. الخطاب للناس جميعاً.. مؤمنهم وكافرهم.. يخبرهم عز وجل عن حاجتهم جميعاً إلى الله.. ثم يذكرهم بأن لا أحد يستحق صفة الغنى المطلق.. إلا هو سبحانه وتعالى.

استدركت على صاحبي..

- ولكن فقر المؤمن إلى الله يختلف عن فقر الكافر.. هناك فقر قهري لا يقتضي مدحاً ولا ذماً.. ولا ثواباً ولا عقاباً.. وفقر اختياري هو محل المدح والثواب..

أما الفقر الأول.. فهو لجميع الناس.. بل لجميع المخلوقات.. ولكن بعض الناس ينكره.. كحاجتهم إلى الله في أرزاقهم وهناء عيشهم من اعتدال الجو.. ونزول المطر.. وطلوع الشمس. ونقاء الهواء.. أي الأسباب الكونية للعيش الطيب على هذه الأرض.. هذه كلها بيد الله ولو شاء منعها من يشاء سبحانه وتعالى.. ومن تفكر قليلاً.. حتى من

غير المسلمين علم أن هذه الأمور كلها بيد الله عز وجل.. ولا اختيار للمخلوقات فيها.. وإذا سلبها الله أحداً لا يملك غيره توفيرها.. ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (القصص) وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ (الواقعة).

أما الفقر الاختياري فهو أن يعلم الإنسان فقره إلى الله ويوقن بذلك ويتصرف من خلاله في كل حين.. وهو ينتج من أمرين: معرفة العبد ربه.. ومعرفة العبد نفسه.. فهو فقير إلى الله لهدايته.. وعافيته.. ورحمته.. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ (الشعراء).. بقي صاحبي منصتاً.. كأنما يستذكر أموراً ويحاول أن يربطها بما سمع.. سألني..

- وهل الشعور «بالاستغناء» عن الله.. كفر؟

- هذا يعتمد على نوع «الاستغناء» الذي يزعمه العبد.. فمن زعم أنه يستغني عن العبودية لله.. بمعنى أنه لا يحتاج إلى عبادة الله ولا التقرب إليه ولا اللجوء إليه.. فهذا يخرج من الملة بعقيدته هذه.. أما من غفل وأتاه الشعور أن نجاحه ثمرة جهده.. وغناه نتيجة تعبه.. وتوفيقه نتيجة عمله.. فهذا ينصح.. ويذكر بالله فقد ضرب الله

لنا مثلاً قارون الذي أوتي من المال ما لم يؤت أحد من العالمين.. فقال: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ (القصص).. وكذلك صاحبه فرعون الذي طغى.. ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ (النازعات).. وكلاهما نال جزاءه في الدنيا ليكون عبرة للآخرين.. أما الأنبياء والرسل فكانوا إذا أوتوا شيئاً مما لم يؤته الله أحداً قالوا: ﴿هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي﴾ (النمل) وعرفوا أن ما بهم من نعمة فمن الله.. وهكذا ينبغي أن يكون العبد الصالح.. يرجع النعم جميعها إلى الله.. فيحمد الله على لقمة العيش.. وشربة الماء.. واليقظة بعد النوم.. والعافية بعد المرض.. ويعتقد يقيناً أنه لا غنى له عن الله عز وجل مهما بلغ في هذه الدنيا..

كلمات الله

صاحبي يسبقني إلى المسجد كل صلاة... ذلك أنه يأتي إلى المسجد قبل الأذان... يؤدي تحية المسجد.. يجلس على كرسيه في الجانب الأيسر من الصف الأول.. يقرأ في مصحفه.. نسبناه إليه؛ لأنه لا أحد يسبقه إليه.

- ما الفرق بين (كلام الله) و(كلمات الله)؟

- ورد: «كلام الله» في ثلاثة مواضع من كتاب الله.. في البقرة: ﴿۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ (البقرة)، وفي سورة براءة: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ (براءة)، وفي سورة الفتح: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ (الفتح).

أما (كلمات الله) فجاءت في سورة لقمان: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ (لقمان).. وفي سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰ

أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِي۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ (الأنعام)، وفي سورة يونس: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾، وفي سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾.

قاطعني:

ـ أولاً لنبدأ بالعقيدة... هذه الآيات جميعاً تثبت لله تبارك وتعالى كلاما.. فاللّه عز وجل يتكلم بما شاء متى شاء كلاماً يليق بذاته عز وجل ولا يشبه كلام المخلوقين.. ولقد «**كلم الله موسى تكليماً**».. كلاماً سمعه موسى عليه السلام.. فالكلام صفة كمال في حق اللّه عز وجل.. ويتكلم رب العزة يوم القيامة ينادي.. «**أنا الملك أين ملوك الأرض**»؟! (متفق عليه).

ويكلم اللّه عباده بما شاء يوم القيامة، يدني العبد منه فيقول: «**عبدي فعلت كذا في يوم كذا...**» أصله في البخاري ومسلم.

فهي صفة ثابتة للّه عز وجل.. لا نؤولها ولا نعطلها ولا نشبهها بشيء من صفات المخلوقين.. كما في جميع صفاته عز وجل.. كعلمه عز وجل.. وسمعه.. وبصره.. وقوته.. سبحانه وتعالى.. ولذلك جاء في الحديث: «**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**» (صحيح مسلم).. ولا يجوز الاستعاذة بمخلوق، بل يجب أن تكون باللّه أو بإحدى صفاته عز وجل.

ـ وماذا عن الفرق؟!

ـ **أولاً.. (كلام الله)** في سورتي البقرة والتوبة.. هو القرآن عموماً، وفي سورة الفتح: أمره بألا يتبعهم المخلفون.. وفي سورتي لقمان والكهف: علم الله عز وجل الذي لو تكلم به.. لنفدت البحار كلها ولم ينفد شيء من كلماته التي يتكلم بها بعلمه سبحانه.. أما في سورة الأنعام ويونس: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ (يونس) و﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ (الأنعام) فهي سنته سبحانه بأن النصر والبشارة في الدنيا والآخرة والجنة للأنبياء وأتباعهم.

ـ أظن أن في اللغة بياناً للفرق.. فـ (كلمات) تستخدم للقلة.. فإن القليل من كلام الله يستوعب كل البحار والأشجار لو كانت مداداً وأقلاماً.. فما بالك بـ (الكلام كله).. ولذلك نلاحظ أن المواضع التي وردت فيها (كلمات) تناسب القليل من كلام الله عز وجل.. والقرآن جزء من (كلام الله).. فهو استخدام الجزء مكان الكل؛ لبيان عظمة هذا الكتاب، أما (كلام الله).. فلا مخلوق يقدره.. كما هي صفاته كلها.. لا نستطيع أن نعرف حقيقتها؛ لأنها صفات الله عز وجل تليق به سبحانه وتعالى..

ـ أعجبني كلام صاحبي مدرس اللغة العربية.. فقد كان يسألني ليختبرني.

التأدب مع الله

جلست بعد صلاة المغرب في مصلاي بعد أن انصرف الناس أحدث نفسي بالمكوث في المسجد حتى العشاء.. واتخذت القرار بعد أن تأكدت أن لا حاجة ملحة يجب إنجازها بين الصلاتين.. أديت السنة.. أخذت مجلساً مريحاً وبدأت قراءة المصحف من حيث انتهيت من سورة النحل.

قبل العشاء بعشرين دقيقة.. دخل «بو فهد» المسجد.. أدى تحية المسجد.. أخذ مصحفه.. أتاني.. بعد السلام.. جلس عن يميني.

ـ لدي سؤال في سورة..

فتح مصحفه..

ـ هذه الآية: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ (المائدة).. هذا يوم القيامة.. كيف لا يعلم الرسل ماذا أجابهم أقوامهم.. ليقولوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾؟

ـ سؤال جيد يا «أبا فهد».. إجابة الرسل هذه تضمنت أموراً عدة منها:

١ ـ علمنا لا شيء بجانب علمك الذي أحاط بالظاهر وبالباطن فأنت علام الغيوب.

٢ ـ علمنا لم يمتد لما بعد موتنا فأنت أعلم بأحوال عبادك منا.

٣ ـ لا ينبغي لنا أن نتكلم بالعلم بين يديك؛ تأدباً.

٤ ـ توبيخ المكذبين من الأمم بأن الله هو الذي يشهد على تكذيبهم.

فهذه الأمور كلها وغيرها جعلت إجابة الرسل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾ (المائدة).

ـ أعجبتني نقطة «التأدب مع الله» في الإجابة عليه..

ـ هذا أدب الأنبياء وأولهم رسولنا صلى الله عليه وسلم.. فهو عندما يتحدث عن نفسه وعما يعلم من الغيب يقول: «**أرجو.. عسى**» مثل قوله عن المقام المحمود، يقول عن العبد الذي يستحق هذه المكانة: «**وأرجو أن أكون أنا هو**» (مسلم): ويقول لأبي بكر الصديق: «**وأرجو أن تكون منهم**» (مسلم) الذين يُدّعَون من جميع أبواب الجنة.. وكل ذلك حق ووحي من الله إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يجزم به تأدبًا مع الله.. وهكذا ينبغي أن يكون الحديث.

ـ وفي الحديث: «**أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة**» هل هو صحيح؟

ـ نعم.. هذا جزء من حديث في صحيح البخاري.. وهكذا كان تأدب الصحابة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه كان يسألهم السؤال.. فتكون إجابتهم: الله ورسوله أعلم.. مع علمهم بالجواب.. كما في الحديث: «**تدرون ما العضة؟**» (مسلم).. وحديث: «**أتعلم أول زمرة تدخل الجنة؟**» (أصله في الصحيحين) وحديث «**أتدرون ما الكوثر؟**» (مسلم) وحديث: «**أى آية من كتاب الله أعظم؟**» (مسلم).. وأحاديث كثيرة.. يكون رد الصحابة: الله ورسوله أعلم.. يريدون العلم الصحيح الأكيد من الرسول صلى الله عليه وسلم.. وكانوا يتأدبون معه صلى الله

عليه وسلم، كما كان جوابهم عندما سألهم: «**أي شهر هذا؟**».. «**أي بلد هذا؟**» (البخاري).. يعني ذا الحجة.. ومكة.. وهكذا ينبغي أن يتأدب المرء مع كتاب الله ومع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.. ينتظر حتى يعرف الجواب منهما ثم يتحدث.

دخل المؤذن «أبو جهاد» الذي حل مكان مؤذننا لتغيبه في إجازته السنوية.. بقي «أبو جهاد» واقفاً يستمع إلينا وينتظر موعد أذان العشاء.

- أليس من هذا الباب سؤاله صلى الله عليه وسلم: «**أتدرون من المسلم**» (مسند أحمد).. «**أتدرون من المؤمن؟**» (مسند أحمد).

- نعم.. ولكن هناك أحاديث يجيب فيها الصحابة على رسول الله، فيصحح إجابتهم.. مثل: «**أتدرون من المفلس؟**» (متفق عليه). ولكن الغالب أن تكون إجابتهم: الله ورسوله أعلم.

ومن أعظم أدب المسلم مع الله ألا يدعو معه غيره ولا يشرك به أحدا.. ولا يدعوه إلا بأسمائه الحسنى سبحانه.. ولا يسأله إلا بما أذن به سبحانه وتعالى.. ولذلك كان من أعظم العلم.. علم الأسماء والصفات والتوحيد عموماً؛ لأنه يعلمنا كيف نتأدب مع الله في كل العبادات وخاصة الدعاء.

تسبيح المخلوقات

مع بداية موسم المطر أرعدت السماء ولكن المطر كان متفرقاً.. استمر في مناطق.. وزخّ في مناطق أخرى.. ولم ينزل في ثالثة.

- هل الدعاء عند سماع الرعد ثابت؟

- نعم.. ولكن ابتداء هل تعلم سبب حدوث الرعد؟

- في علم الأحوال الجوية.. نتيجة تراكم السحاب تحدث فراغات هوائية وبخار، فيندفع بعضها ويصدر هذا الصوت.

- وفي علم الغيب؟

- لا أدري.. نوّرني.

- في الحديث: «الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب، بيديه أو في يده مخراق من نار يزجر به السحاب، والصوت الذي يسمع منه زجره السحاب حتى ينتهي إلى حيث أمره» الترمذي وأحمد وغيرهما، وصححه الألباني.

- سبحان اللّه!

- أما الدعاء عند سماع الرعد... فعن ابن عباس أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: «سبحان الذي سبحّتَ»، وقال: «إن الرعد ملك ينعق بالغيث كما ينعق الراعي بغنمه»، وكذلك عن عبد اللّه بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: «**سبحان الذي يسبح الرعد بحمده**

والملائكة من خيفته»، ثم يقول: «**إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض**». ويكفي في ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ (الرعد).

قاطعني:

- لقد ذكرتني بأحد زملائي في كندا.. فَقَدَ ابناً له كان جالساً تحت شجرة في حديقة عامة يقرأ كتاباً، فأصابته صاعقة فمات.

- هذه كلها مخلوقات لله - عز وجل -: الرياح.. المطر.. الصواعق.. الزلازل.. المياه.. أنهارها.. وبحارها.. وكل شيء في الكون مخلوق لله.. يأتمر بأمره.. ويسبح بحمده..

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ مِنۡ خِيفَتِهِۦ وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾ (الإسراء).

وفي تفسير السعدي: «ما من حيوان ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجماد وحي وميت ﴿إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ بلسان الحال ولسان المقال، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤﴾، أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم، بل يحيط بها علام الغيوب».

ولذلك ذكر الله تعالى أن جميع المخلوقات تسجد له.. ولم يستثن من ذلك إلا بعض البشر: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُۤ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٞ

مِّنَ ٱلنَّاسِۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾ (الحج).

والسجود والتسبيح من هذه المخلوقات لله ـ عز وجل ـ قضية غيبية نؤمن بها ... بل يجب الإيمان بها؛ لأنها وردت صريحة في كتاب الله، وليس لمؤمن إنكارها.. أما كيفية السجود فلا نعلمه إلا ما ثبت في الأحاديث الصحيحة.. كما في البخاري ومسلم: عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أتدري أين تذهب هذه الشمس؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب وتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت**».

وكذلك سجود الجبال والشجر بفيء ظلالها.

قاطعني:

ـ ولكن الناس يقولون: نحن اليوم نراقب الشمس على مدار الساعة، ونعلم أنها لا تختفي بالنسبة للأرض جميعاً.. بل تدور حولها؛ فكيف تسجد لله.. وذلك عند مغيبها عنا.. وهي لا تغيب؟!

ـ أعلم ذلك.. ولكني أؤمن أنها تسجد تحت العرش وتستأذن.. ولا أدري كيف؛ لأن هذا من الأمور الغيبية.

الله خلقنا.. ليعذبنا؟

مقابلة متلفزة للممثل عمر الشريف.. سأله المذيع عن الأديان.. فأجاب بمعنى أنه «لا يعقل أن يخلق الله خلقا ثم يعذبه»، وأردف: «أعلم أن كلامي هذا لن يعجب كثيرا من الناس.. ولكن هذا الذي أعتقده وهذا الذي يمليه علي المنطق والعقل»..

ـ لا شك أن هذا المنطق يتبناه كثير من الناس.. ولا سيما أولئك الذين يهتمون بالجوانب الفكرية والفلسفية ولهم نظر في الأمور العامة وليسوا من أهل الاختصاص..

ـ هذا المنطق سليم مئة بالمئة لو أضفنا إليه بعض الضوابط..

ـ هل لي بمزيد توضيح؟!

ـ **أولاً**... لا يعذب الله خلقاً لا يستحقون العذاب.. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٤٠﴾ (النساء).

ثانياً: اتباع جميع الرسل في عهدهم مؤمنون، فأتباع موسى مؤمنون وهم أكثر الناس بعد أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وأتباع عيسى ـ في زمنه ـ مؤمنون، وأتباع يونس، وإلياس، وصالح، وشعيب عليهم السلام جميعاً، ولذلك لا يؤمن من ينكر أي رسول ذُكر في القرآن الكريم أو السنة الصحيحة، فهذا ركن من أركان الإيمان.. (الإيمان بالرسل).

ثالثاً: جميع الأنبياء أتوا برسالة واحدة هي (الإسلام) بمعناه الشامل العام: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ﴾ (آل عمران)، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المائدة).

رابعاً: جميع الرسل تعاونوا على تحقيق التوحيد لله، من وجد منهم في ذات الزمان، أو تعاقب منهم، وكلهم أوصوا أتباعهم بالإيمان بمن يأتي بعدهم من الرسل، فعيسى عليه السلام أوصى وبشر بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم، فجميع الأنبياء بُعثوا لغاية واحدة (توحيد الله في العبادة).

ـ لنرجع إلى منطق عمر الشريف..

ـ هذا المنطق جميل، ولكنه ناقص.. نعم لم يخلقنا الله ليعذبنا، ولكن هذه المقدمة لا تؤدي إلى نتيجة صحيحة، وهي أن الجميع على حق والجميع سيدخل الجنة لمجرد أن الله خلقنا.. فالله خلقنا، وكلفنا، ولم يخلقنا كما البهائم، ولا كما الملائكة، بل جعلنا خلقاً مكلفاً مأموراً باتباع الرسل؛ لتحقيق التوحيد لله عز وجل ولعبادته وحده لا شريك له، وإفراده بصفات التفرد والوحدانية، فإذا نحن حققنا ذلك أدينا الغاية التي خلقنا من أجلها..

ـ هلا بسطت الموضوع أكثر؟

ـ نعم، الله خلقنا، لنعبده، ونحن (البشر) قادرون على عبادة الله.. وقادرون على معصية الله، وهذا معنى أننا مكلفون أي أمرنا الله بأوامر..

وأعطانا القدرة على طاعته، كما أعطانا القدرة على معصيته، فمن أطاع الله نال الثواب، ومن عصى الله نال العذاب، فليس الجميع إلى الجنة مهما عملوا.

- وما معنى قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ (فاطر).

- المعنى أن من سلك درب الهداية وفقه الله ويسر له ومن سلك درب الغواية تركه الله لاختياره.. وكما قال الله في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه**» (مسلم).

على ماذا أقسم الله؟ (١)

ـ «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» صحيح.. وينبغي العلم أن كلمة «كفر» أو «أشرك» في الحديث وأمثاله لا تعني الكفر المخرج من الملة المخلِّد في نار جهنم.. بل هو «كفر دون كفر» كما الحال في «**شهادة الزور**».. و«**شرب الخمر**».. و«**إيذاء الجار**».. و«**قتل النفس**».. وغيرها من الذنوب العظيمة.. مع أن هذه الذنوب تتفاوت فيما بينها ولكنها جميعاً وصفت «بالكفر».

ـ سمعت رواية أخرى: «**كل يمين يُحلف بها دون الله شرك**»؟ (السلسلة الصحيحة)

ـ نعم، وهي رواية صحيحة، وفي شرح الطحاوي: «**لم يُرَدْ به الشرك الذي يخرج من الإسلام**».

ـ ولكن الله أقسم «**بالشمس والقمر والليل والنجم**»؟!

قاطعته:

ـ لله أن يقسم بما شاء.. بذاته.. أو مخلوقاته.. وإذا أقسم بشيء من مخلوقاته.. فإنما ينبه إلى عظمة هذا المخلوق.. ولو تتبعنا ما أقسم الله به في كتابه.. لوجدنا أنه سبحانه أقسم بذاته.. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾﴾ (الحجر).. ﴿تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ (الصافات).. وأقسم بالنبي صلى الله عليه وسلم: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ (الحجر) وأقسم بالشمس والقمر والليل والتين والزيتون والطور والنهار والسماء والأرض والإنسان. والشفق والملائكة.. ومكة ومواقع النجوم..

فكلها أمور عظيمة أقسم اللّه بها.. ولكن هل تتبعت على ماذا أقسم اللّه، عز وجل؟

- كلا.

- تعال.. نتصفح آيات اللّه - عز وجل - لنعلم على ماذا أقسم اللّه سبحانه وتعالى.

علق صاحبي قبل أن أتابع كلامي:

- إن الملوك لا يحتاجون لأن يقسموا.. فإذا أقسم الملك فلا شك أن الأمر خطير.. هذا مع ملوك الأرض.. وللّه المثل الأعلى.. فكيف إذا أقسم ملك الملوك.. الجبار.. الذي بيده ملكوت السموات والأرض؟! لا شك أن الأمر عظيم جداً.

- نعم هو كذلك.. أقسم اللّه على المعاد: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾ (الذاريات).. وهذا الأمر هو الأشد والأخطر؛ فلا يجوز لأحد أن يشك في البعث بعد الموت.. والحساب على الأعمال.. ثم الجزاء.. ولا يستطيع من أوتي ذرة عقل أن ينكر هذا الأمر.. فلأجل هذا بعث اللّه الرسل.. وأنزل الكتب: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ (المؤمنون).. والحشر سيكون للجميع.. الإنس والجن.. جميعاً: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ (الرحمن).

قاطعني:

- هل نستطيع أن نستنتج أنه لا مخلوقات أخرى عدا الإنس والجن؟

ـ ربما يمكننا القول أنه لا مخلوقات أخرى مكلفة.. تحاسب يوم القيامة.. وتجازى بالجنة أو النار عدا الإنس والجن.. فهما الثقلان اللذان سيحاسبهما الله يوم القيامة.. ويؤكد الله ـ عز وجل ـ هذا الحشر بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ (مريم).. فالكفار من الإنس والجن سيكون مآلهم إلى «جهنم».. والمؤمنون ينجيهم الله ـ عز وجل ـ برحمته ثم بسبب أعمالهم.. فهل بعد ذلك يشك أحد أنه سيحاسب يوم القيامة؟!

على ماذا أقسم الله عز وجل؟ (٢)

عندما يقسم الله ـ عز وجل ـ على أمر.. فاعلم أنه عظيم.

أقسم الله برب محمد صلى الله عليه وسلم.. على نفي الإيمان عمن لا يرضاه حكماً فيما اختلف فيه.. في سورة النساء قال ـ عز وجل ـ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء) فلا شك أن «شهادة أن محمدا رسول الله».. تقتضي الانصياع لأمره والرجوع إليه وارتضاء حكمه في كل ما يختلف فيه، ومن يخالف ذلك توعده الله ـ عز وجل ـ: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ (النور).

ـ وهل كل مخالفة للرسول صلى الله عليه وسلم لها ذات الحكم؟

ـ بالطبع لا.. فهناك المعصية والبدعة والشرك.. فمن رفض ابتداء الرسول صلى الله عليه وسلم وأنكر وجوب طاعته واتباعه وجحد سنته.. فقد وقع في الشرك أو الكفر؛ فإن الركن الأول للدخول في الدين: الشهادة.. التي لا يمكن تجزئتها؛ فليس لأحد أن يقول: «**أشهد أن لا إله إلا الله**».. ويظن أنه دخل الإسلام.. جاحداً النصف الثاني.. وتكون مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم معصية دون كفر إذا أقر المرء برسالته ووجوب طاعته، ولكن خالف أمر الرسول صلى الله عليه وسلم تساهلاً

أو تكاسلاً كمن خالف أمره بإعفاء اللحية أو أي أمر آخر أوجبه الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته.. وهناك أعمال الأمر فيها واسع؛ لأنها من السنن والمستحبات يخالف فيها المرء.. دون أن يقع في الإثم.

صاحبي من المواظبين على صلاة الفجر رغم تقصيره في إعفاء اللحية.. وبعض السنن الأخرى.. ولكنه ذو أخلاق عالية.. ولا سيما في التواضع ولين الجانب والصدق والأمانة.

كنا نتمشى بين العشاءين بانتظار الأذان:

ـ انتبه إلى قول الله ـ عز وجل: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ (النساء).. صيغة جازمة لا تهاون فيها ولا لين.

ـ هل: «نفي الإيمان» يعني «الكفر»؟!

ـ كلا؛ فإن «نفي أصل الإيمان» يعني «الكفر».. أما «نفي الإيمان» معظم الأحيان يعني نفي «كمال الإيمان».. كقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**والله لا يؤمن**».. وكررها «**والله لا يؤمن**».. ويلّثها «**والله لا يؤمن**».. «**من لا يأمن جاره بوائقه**» (البخاري).. فهل من يؤذي جاره كافر يخلد في نار جهنم؟! لا يقول أحد من أهل السنة ذلك.. وكذلك عندما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**» (متفق عليه).. وكذلك عندما يقول صلى الله عليه وسلم: «**لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوائقه**» (مسلم) فإن هذا لا يعني حرمانه من دخول الجنة مطلقاً.. بل ابتداء.. ولا يعني من باب أولى

خلوده في النار، وفي الحديث الآخر: «**لا يؤمن العبد الإيمان كله حتى يترك الكذب في المزاح والمراء وإن كان صادقاً**» رواه أحمد (صحيح لغيره).. فهذه الأحاديث يجب أن يفهم المرء معناها قبل أن يتحدث بها.. وهي تختلف عن الأحاديث الأخرى مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع: بالله وحده لا شريك له، وأني رسول الله، وبالبعث بعد الموت، والقدر**» صحيح المشكاة.

على ماذا أقسم الله عز وجل؟ (٣)

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ (الشمس).

- يقسم الله - عز وجل - في سورة «الشمس».. ثمان مرات على هذه القضية.. الفلاح مع التزكية والخيبة مع التدسية.

- هذا يزيد من أهمية المقسم عليه.

- لا شك.. أن يقسم الجبار ثمان مرات.. (الشمس - الضحى - القمر - النهار - الليل - السماء - الأرض - النفس).. على أمر ينبغي ألا يمر دون تدبر واعتبار.. (الفلاح) هو الفوز بكل مطلوب طيب.. و(دساها): أغواها.. نقصها وأخفاها بالفجور.. وأصله (دسّس)، وقيل: من (دس) شيئاً في كوة فيمنع وصول النور إليه، وكذلك الهوى والشهوة (سد) على القلب من نور الهداية.

- وماذا عن قوله ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.. عن السماء؟

لا شك أن خلق السماء أمر عظيم.. وخلق السماء أكبر من خلق الإنسان ويلفت الله انتباهنا إلى عظمة هذا الخلق.. ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (لقمان).. وسواها.. فلا ترى فيها تفاوتاً.. ولا فطورا.. أتقن صنعها.. وأحكم بناءها.. وفيها من الأمور ما لا يعلمه إلا الله.. وهي ظاهرة للعيان.. أمرنا الله أن ننظر إليها.. ونتفكر في عظمة خالقها.

قاطعني:

- ولكن يقولون: إن اللون الأزرق سببه انعكاس الضوء.. (الأحمر والبرتقالي والأصفر والأخضر..) فلا يبقى إلا الأزرق.. وهو اللون الذي نراه.

كنت وصاحبي في جلسة استراحة في مكتبي بانتظار صلاة الظهر.

- هذا لا ينافي النظر إلى السماء.. والنجوم.. والقمر.. والشمس.. فالله - عز وجل - يقول: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ (ق).. فلو كان النظر إلى السماء غير ممكن لم نؤمر به لنتفكر ونتدبر ونعتبر.. وكذلك قالوا: إن النجوم التي نراها ليست هي حقيقة بل صورتها؛ لأن الضوء يحتاج إلى زمن حتى يصل إلينا.

الشاهد أن هذا المخلوق العظيم (السماء).. أقسم الله به.. ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾.. الذي بناها.. أو ما بنى فيها.. أو: كيف بناها.

- وما مناسبة «ثمود»؟

- بعد أن ذكر لله - عز وجل -: (الفلاح.. والخيبة).. أعطانا مثالاً لمن خاب.. ثمود بتكذيبها رسولها.. وطغيانها عن أمر ربها.. بأن عقر الناقة أشقاها.. فالذي عقرها.. (دسَّى) نفسه.. وهذا أشقاهم مع أنهم جميعاً استحقوا العذاب لطغيانهم.. وهذا مآل الأمة إن هي طغت.. الفرد إن أقدم على معصية الله ولو بإرادة الأمة ونزولاً عند رغبتها.. فآخر السورة مثال لأول السورة.. وإنذار أن (يدسِّى) المرء نفسه.

على ماذا أقسم الله (٤)

﴿ قٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ ﴾ ﴿ صٓ ۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ١ ﴾.

- أقسم الله بالقرآن.. المجيد.. أي ذي المجد.. وفي الثانية.. أقسم بسورة «ص».. بالقرآن.. ﴿ذِي ٱلذِّكۡرِ ١﴾.. الشرف والشهرة.

- وهل يجوز لنا أن نقسم نحن بالقرآن؟

- القرآن.. كلام الله.. وكلام الله صفة من صفات الله - عز وجل - والقاعدة أنه يجوز القسم بالله وأسمائه وصفاته.

- وما الذي أقسم عليه الله - عز وجل - في الآيتين؟

- على أمور.. قالوا.. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهۡلِ ٱلنَّارِ ٦٤ ﴾ (ص).. وفي «ق» ﴿ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ ﴾ (ق) وقالوا.. أقسم على تقدير «إنا أنزلناه لتنذر به الناس».. أو «لتبعثن».. وكلها أمور عظيمة.. سواء بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.. أن البعث بعد الموت أو ذكر أحوال أهل النار.

- وكيف يكون معنى الآية.. ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢﴾؟ (ق).

- الحديث للرسول صلى الله عليه وسلم.. أي يا محمد لم يكذبوك أن لم يعلموا صدقك، ولكن كذبوك تعجباً من أن جاءهم منذر ينذرهم، بشر منهم.. ولم يأتهم ملك من السماء.

كنا مجتمعين في لقائنا نصف الشهري.. والأسئلة تتوالى من الأخوات اللواتي لا أكاد أجتمع بهن إلا ويبادرنني بالأسئلة وكأنني «مفتي الديار».

ـ أحدنا عندما يتدبر هذه الآيات.. يقول.. كما قال ذلك الأعرابي.. «**من الذي أغضب الجليل حتى حلف؟!**».. عند قول الله ـ عز وجل ـ ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الذاريات) فإن الله ـ عز وجل ـ لا يحتاج أن يقسم.. ولكنه سبحانه يبين لنا عظم هذه الأمور التي يقسم بها.. حتى نتعظ.. ونتدبر.. ونأخذ الأمر بجد.. وإلا فكلامه سبحانه كله حق.. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وإذا أقسم الحق.. على حق.. فلا شك أن الأمر عظيم.. والإنذار شديد.

ـ سورة «ق».. كلما سمعتها.. اقشعر بدني.. واغرورقت عيناي؟!

ـ إنها سورة عظيمة.. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يكثر من قراءتها على المنبر حتى إن ابنة حارثة بن النعمان.. قالت: «ما حفظت (ق) إلا من فيِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب بها كل جمعة.. (مسلم ـ أبو داود ـ النسائي).

ـ وهل يجوز أن يقرأ الخطيب سورة على المنبر يوم الجمعة؟!

كانت السائلة ابنة أختي التي تنقبت منذ شهر تقريباً..

ـ نعم.. يحمد الله ويثني عليه ويصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ويقرأ سورة.. وتنتهي الخطبة.. ولكن كما قالت «أم حمد»: «ق».. ينبغي أن نتدبرها.. ففيها من وصف الآخرة ما يجعل المرء يحاسب

نفسه.. ويزهد في الدنيا.. ويستعد للقاء الله ـ عز وجل ـ: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾ (ق).

على ماذا أقسم الله عز وجل؟ (٥)

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ۝١٤﴾ (الطارق).

بدأت السورة بمجموعة أقسام.. على خلق الإنسان وبعثه.. ثم أقسم الله مرة أخرى بالسماء.. والأرض.. ووصف السماء بأنها ذات الرجع.. أي المطر.. وقال بعضهم: هو السحاب ينزل المطر.. والأرض ذات الصدع.. أي النبات.. وقالوا: الرجع شمسها وقمرها يغيب ويطلع.. والأرض «تتصدع» عن النبات والأشجار والثمار.. و«الرجع».. صفة السماء ترجع كل عام بالغيث وأرزاق العباد.. وهذا القسم على أن القرآن «قول فصل».

كنت وصاحبي نتمشى نحو منازلنا بعد صلاة الفجر.. وقرأ إمامنا في الركعة الثانية «سورة الطارق».. فسألني عن الرجع والصدع.

- إنه قسم شديد.. وعبارات صريحة واضحة.. قوية.. لا مجال للشك فيها.. ولا لتأويلها.

- أحياناً يبين الله عز وجل هذا الأمر متحدياً.. وزاجراً للكفار.. فمع أن القرآن فصل.. بين الحق والباطل.. وحكم بين الهدى والضلال.. والظلمات والنور.. إلا ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥﴾ (الطارق) بمحاولاتهم رد الحق. وإنكار ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاولاتهم رده.. بل وقتله.. وكل هذا كيد بشري.. فجازاهم بما يقابل عملهم.. ﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ۝١٦﴾ (الطارق).. وكيد الجبار يليق به.. ولئن كان الكيد.. هو التخطيط بالخفاء للنيل من الآخر.

وهو صفة نقص في المخلوقات لأنه لا يلجأ له إلا الضعيف الذي لا يقوى على المواجهة.. فإن الكيد في حق اللّه عز وجل صفة كمال.. يليق به عز وجل.. فجازاهم بكيدهم كيداً أعظم منه.. قاطعني:

- وهل يجوز أن نصف اللّه بـ «الكيد»؟

- ليس على الإطلاق.. بل يكيد سبحانه من يكيد دينه ورسله وأولياءه.. فهي صفة خاصة منه للكافرين الذين يكيدون للنيل من دين اللّه.. ولا نشتق من هذه الصفة الخاصة اسماً للّه عز وجل.. وهذا مثل قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال) فهم يمكرون «يخفون المكائد».. ويمكر اللّه «يخفى ما أعد لهم» حتى يأتيهم بغتة.. ومثل قوله عز وجل: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ (البقرة) فاللّه عز وجل يمكر بمن يمكر بالإسلام.. ويستهزئ بمن يستهزئ بدين اللّه.. ويكيد من يكيد الرسل والأولياء.. وكلها صفات كمال للّه عز وجل.. ولا تطلق.. أي لا يقال: اللّه يمكر.. اللّه يكيد.. اللّه يستهزئ.. بل تقيّد بما جاءت به.

كدنا نبلغ مفترق الطرق.

- إذاً يقسم اللّه بالسحاب الذي ينزل منه المطر.. والأرض التي يخرج منها النبات.. أن القرآن لا مجال للتلاعب معه.. ولا اتخاذه هزلاً.. ومن يفعل ذلك توعده اللّه.. وسيأتيه العقاب.. «رويداً».

عباد الله..

ـ هل من نداءات التكريم في القرآن أن يوصف المرء بأنه من عباد الله؟!

ـ أحياناً... ولكن ليس على العموم فصفة العبودية في القرآن أتت بمعان عدة.. منها مثلاً... جميع الخلق.. كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ (مريم) ومثل قوله عز وجل في الحديث القدسي: «**يا عبادي.. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم...**» الحديث المعروف (مسلم).. فهذه العبودية بمعنى الخلق وليس لأحد أن يخرج عنها... ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر).. وهنا ينادي الله عز وجل العصاة... يدعوهم لعدم القنوط من رحمته عز وجل والرجوع إليه والتوبة.. ومن معاني العبودية الخضوع للشيء واتباعه كما في الحديث «**تعس عبد الدينار.. تعس عبد الدرهم.. تعس عبد الخميصة..**» الحديث (البخاري)... ومن معاني العبودية.. الأسر في الجهاد المشروع... فمن وقع في الأسر من الكفار أثناء جهاد شرعي فإنه (عبد) والمرأة (أمة).. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ (البقرة).

فإذا ورد وصف العبودية في القرآن فإنه ينظر في المعنى... ولقد كرم الله المؤمنين بأن وصفهم بالعبودية في مواضع عدة من القرآن كما في قوله عز وجل... ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ (الزخرف).. ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤١﴾﴾ (الصافات) وهذه العبودية لله هي الغاية التي من أجلها خلق الله الخلق.. وهي التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون..

شعرت أنني تشعبت في الموضوع أكثر مما أراد صاحبي..

سألته... هل أجبتك... أم تحدثت في أمور لم تكن تريدها؟

رد مؤكداً... مجاملاً بعض الشيء..

- أستغفر الله... وهل يرغب أحد عن العلم الشرعي!! إني أصغي تابع الحديث..

- ومن أعظم مقامات التكريم للرسول صلى الله عليه وسلم.. أن وصفه الله بالعبودية في مواضع التشريف.. ففي الوحي.. وهو أعظم تكريم.

قال الله تعالى: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ (النجم)... وقال أيضاً: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ (الفرقان).. وقال تبارك وتعالى في مقام الإسراء.. ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ

إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ (الإسراء).. وفي مقام الدعاء.. ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ (الجن).. والرسول صلى الله عليه وسلم كانت أحب الصفات إليه عبد الله.. قال صلى الله عليه وسلم..: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم إنما قولوا عبد الله.. ورسوله..**» (البخاري) و(عبدالله)... من أحب الأسماء إلى الله عز وجل...

- وهل لفظ (عبد الشيطان) صحيح؟

- لقد وصف الله تعالى بعض الناس أنهم يعبدون الشيطان كما في قوله عز وجل عن إبراهيم ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ (مريم).. وكان والد إبراهيم (آزر) وقومه يعبدون حجارة كما أخبر الله عز وجل... فكل من يعبد شيئاً من دون الله... فإنه يعبد الشيطان... من يعبد الحجر... أو الشجر أو النار أو النجوم أو الشمس أو القمر أو الملائكة أو الأولياء.. هؤلاء جميعاً وغيرهم (عبدة الشيطان)... أما الطائفة التي عرفت بهذا الاسم فإنهم من ضمن أولئك وإن ابتدعوا طقوساً ليميزوا أنفسهم عمن سواهم... قاطعني.. بحماس أكثر هذه المرة.

- وهل كل ما يقع في الأرض من معصية نستطيع أن ننسبه إلى الشيطان؟!

وأريد إجابة بـ (نعم)... أو (لا)...

ـ لماذا (نعم) أو (لا)؟... الشيطان تعهد أن يعمل إلى يوم القيامة على إغواء بني آدم جميعاً... ما استطاع إلى ذلك سبيلاً... وجند له معاونين من الإنس والجن... ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (الأنعام)... ومع ذلك فالإنسان مسؤول عما يقترف... وسيحاسب عليه... ويجازى... ولذلك يتبرأ الشيطان من جميع من اتبعه يوم القيامة... ويقول لهم... ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ (إبراهيم)... وذلك أنه وجميع من اتبعه سيؤول إلى جهنم... ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (ص)... فهل نستطيع أن نقول أن كل معصية تقع في الأرض بسبب الشيطان؟!

إن نفعت الذكرى

لدى شقيقتي قناعات في التربية الدينية.. ترى أن القضايا الشرعية يجب أن تكون نابعة من الإنسان، لذلك هي لا تلزم أبناءها بشيء.. فلم تتحجب البنت الكبرى وتحجبت التي تصغرها.. رغم أن الجميع قد تجاوز العشرين!!

والتزم الابن الأكبر بالصلاة في المسجد... وأخوه الأصغر ربما جمع ثلاث صلوات.. أو ربما لم يصِّل.. إلا بين فترة وأخرى..

اجتمعنا في رمضان..

- ألا ينبغي على أحدنا أن يتعظ مما يدور حوله.. ألم تعلموا بوفاة (سالم).. ذلك الشاب الهادئ.. المحبوب.. المجتهد في دراسته.. كانوا قد رأوا سالماً مرة أو مرتين في منزلي، فهو أحد أقارب زوجتي.. استنكرت (أنفال) الخبر..

- (سالم).. توفي؟! مسكين.. اللّه يرحمه.. متى؟.. وكيف؟

- كان يقود مركبته بكل هدوء.. اجتازت مركبة مسرعة الحاجز بين الطريقين.. واصطدمت مباشرة به.. وتوفي رحمه اللّه..

بدا التأثر على الشباب..

- هكذا هي الحياة.. لا يدري أحدنا نهايتها.. ﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ (لقمان).. ولذلك من العقل أن يكون المرء على خير حتى

إذا فاجأه الموت.. انتقل وهو على خير.. ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ (آل عمران).

اعترضت شقيقتي..

ـ هذه نظرة تشاؤميه.. لا يستطيع أحدنا أن يتمتع بالحياة، وهو يفكر بهذه الطريقة..

ـ بل هي نظرة واقعية.. عملية.. وأظنك تتهربين من مسؤولياتك تجاه تربية الأبناء بعدم حضهم على الطاعات والإلتزام بالدين.

كانت المتحدثة (سمر) بنت أختي المتحجبة.. المصلية.. كانت الكلمات قاسية بنظري.. ولكن يبدو أن والدتها اعتادت على سماعها فلم تتأثر..

أجابتها بهدوء:

ـ كل إنسان مسؤول عن تصرفاته.. والله أمر رسوله فقال: ﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ٩﴾ (الأعلى).

أردت توضيح الأمر:

ـ كلنا على حق.. ولكن المعنى من الآيـة.. أن الذكرى والنصيحة والموعظة قد تأتي بنتيجة سلبية.. فهنا لا يقدمها الإنسان.. وأحياناً لا تكون لها نتيجة مطلقاً.. وهنا يتساوى إعطاؤها وعدمه.. هذا بالنسبة للتعامل مع الآخر.. ولكن علاقة الوالدين بالأولاد تختلف.. فالله أمرنا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ

غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ (التحريم).. والرسول صلى الله عليه وسلم أرشدنا.. «**كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**» (متفق عليه).. أي أن اللّه سيسألنا عن أبنائنا.. لا عما أطعمناهم وألبسناهم فحسب، بل عن أمرنا لهم.. ونهينا لهم.. (**مروا أبناءكم بالصلاة لسبع...**) (صححه الألباني) هذه أسئلة يجب علينا بوصفنا آباء أن نجهز إجاباتها.. لا أزعم أن أحدنا سينجح مع أبنائه.. ولكنه يجب أن يحاول ويستمر.. ويحاول.. ولا يقنط.. فإن وفقه اللّه ونجح.. فمن اللّه.. وإن لم ينجح.. فقد أدى ما يجب عليه تجاه أبنائه.. أمام اللّه عز وجل.

إني كنت من الظالمين

لو تتبع أحدنا الأدعية التي توجد في كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم والتي هي أقرب للإجابة لوجد أنها تحوي اعتراف العبد بذنبه وإقراره بتقصيره وإثبات الفضل لله رغم كل ذلك... ولعل أول دعاء تعلمته البشرية هو دعاء آدم عليه السلام... وهذا الدعاء علمه الله لآدم... فبعد أن عصى آدم ربه وأكل من الشجرة وبدت لهما سوآتهما... طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة... وعاتب الله عز وجل آدم على فعلته... لم يدر آدم ما يقول.. ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (البقرة).

فعلمه الله أن يقول: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأعراف).

فتاب الله عليه وأمره بالهبوط من الجنة.

صاحبي من المتفانين في العمل ولا سيما بعد أن كلف بمنصب العميد المساعد في الكلية...فقلما أراه في الحي أو في المسجد... ولا يفصل داري عن داره إلا سبعة دور!!!

كنا نتمشى في أزقة منطقتنا بين المغرب والعشاء.. ابتدرني دون مقدمات..

- هذه الدنيا تشغل المرء حتى ليكاد أن ينسى صلاته لولا سماع الأذان... هل تصدق أني قبل أسبوع تقريباً... وبعد انشغالي طيلة

الصباح... قلت سأرتاح بأداء ركعتي الضحى... ومن باب الفضول نظرت إلى ساعة الحائط فإذا بها تجاوزت الثانية عشرة والنصف... ولم أسمع أذان الظهر... استغفرت ربي وأديت صلاة الظهر... في مكتبي.

ـ هي الدنيا كذلك.. من انشغل بها لا ترحمه... بل ربما ينشغل بعمل جليل فيه خدمة الآخرين وقضاء مصالحهم... ولكن ينبغي ألا ينسى حق اللّه عليه أولاً والصلاة في وقتها حق اللّه على العبد... وأحدنا مهما بلغ في الحرص على اتباع أوامر اللّه وتطبيق شرع اللّه.... فإنه يجب ألا يغتر بعمله، بل يجب أن يتهم نفسه... لا تيئيساً لها... ولا تحبيطاً... ولكن ابتعاداً عن الغرور والاتكال على العمل... ولذلك كان سيد الاستغفار.. إقرار بتوحيد اللّه... وربوبيته... واعتراف بالتقصير من العبد والفضل من اللّه... «**أبوء لك نعمتك علي وأبوء لك بذنبي..**» (البخاري). وليس لأحد أن يقول أن لا ذنب له...

قاطعني....

ـ ولا حتى الرسول صلى اللّه عليه وسلم؟

ـ الرسول صلى اللّه عليه وسلم... غفر اللّه ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. كما في سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾.. وليس ذلك لأحد بعد الرسول صلى اللّه عليه وسلم... فالكل ينبغي أن يشعر بالتقصير تجاه اللّه عز وجل... وبفضل اللّه عليه... وانظر إلى دعاء ذي النون... وهو في مصيبة الظلمات... نادى ربه فقال: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ

ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء).. فأخبر النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**أنه ما من عبد مؤمن في كربة فيدعو بدعاء ذي النون إلا فرج اللّه عنه ما فيه**» (السلسلة الصحيحة).

مررنا على رهط جلوس بادرناهم بالسلام فردوا... تابعنا سيرنا.

ـ المؤمن يعيش بين الرجاء والخوف... والخوف يغلب الرجاء في الحياة حتى لا يغتر بطيب العيش... وقلة المصائب... ويعلم أن الأمر كله اختبار من اللّه.. فيخاف على نفسه من الذنوب.. ومن عدم قبول الطاعات.. مع يقينه أن اللّه ﴿لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (النساء).. ولكن يخاف الرياء.. ويخاف عدم قبول العمل.. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون) وإذا جاء الأجل غلب الرجاء... بأنه أخلص للّه... وحقق التوحيد.. فيلقي اللّه عز وجل وهو يحسن الظن به... وهو يحب لقاءه... وهذه الأمور يتعلمها المرء أولاً ويمارسها ثانياً حتى تكون خلقاً له ومسلكاً.. ويتهم نفسه مهما أطاع اللّه... يكثر من الاستغفار والتوبة... ويدعو اللّه أن يغفر له ما في نفسه من ظلم وسيئات... وأن لا يحبط طاعاته ولا يرد قرباته.. كل ذلك بصدق وإخلاص مع اللّه عز وجل.

حتى لا نكون من الغافلين!

(غفل) لغة سها من قلة التحفظ والتيقظ، وترك الشيء إهمالاً غير نسيان، وذم الله صفة (الغفلة) في معظم المواضع التي وردت فيها، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف) وقوله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (النحل)، وحذر سبحانه من الاتصاف بهذه الصفة، فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ (الأعراف). والأمر بالطبع لأمة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه أول الذاكرين.

كان الحديث مع زوج شقيقتي (بو عبدالله).. أثناء تجمعنا مساء الأربعاء حيث اللقاء الأسبوعي...

- ولماذا خص الله الذكر ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ مع أن الذكر يكون في كل وقت؟

- ملاحظة جيدة.. كالعادة.. هذه الآية مكية قبل فرض الصلاة خمس صلوات فكانوا يصلون مرتين قبل الشروق وقبل الغروب كما في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾ (ق)، فالمقصود بالذكر هنا الصلاة... أما الذكر العام فكما

قلت في جميع الأوقات.. فالمطلوب من المسلم ألا يكون من الغافلين.. وأول الأمور للتخلص من هذه الآفة المحافظة على الصلوات الخمس.. في أوقاتها.. فمن أداها خرج من دائرة الغفلة.. ثم يرتقي العبد في دائرة الذكر.. حتى يكون من ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ (الأحزاب).

ـ وكيف يدخل هذه الدائرة الراقية؟!

ـ لا شك أن أعظم الذكر ـ على العموم ـ كتاب الله عز وجل وأفضل الذكر ما ثبت في السنة.. مثلاً.. أفضل الذكر بعد الوضوء (**أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله**).. وأفضل الذكر عند دخول المسجد «اللهم صلّ على محمد وآل محمد اللهم افتح لي أبواب رحمتك».. وأفضل الذكر بعد الصلاة.. التسبيح (٣٣) والتحميد (٣٣) والتكبير (٣٣) وإتمامها بكلمة التوحيد.. وما ثبت من أذكار عقب الصلوات.. وهكذا.. إذا تعلق الذكر بعبادة فهو الأكمل في موضعه.. وإلا فعلى العموم أفضل الذكر بعد القرآن (**لا إله إلا الله**).. ثم يذكر العبد ربه بما يتيسر من أذكار يحفظها.. (**سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**).

ـ قاطعني...

ـ تصلني رسائل قصيرة على الجوال.. مثلاً: (**سبحان الله وبحمده**) لقد غرست لنفسك نخلة في الجنة.. وهكذا..

ـ هذه الرسائل ترسل بحسن نية.. والواقع أن المرء يرجو أن ينال الأجر الذي يترتب على الذكر.. ولكن لا يضمن ذلك ويجزم به كما هي

صيغة هذه الرسائل القصيرة.. فإن القاعدة فيما ذكر أجره في القرآن والسنة.. (أن كمال الأجر مع كمال العمل).. وأيضاً.. يجب أن (تنتفي الموانع).. مثلاً رجل يقول هذه الأذكار ولا يصلي.. هل تنفعه؟ كلا.. لأن المانع أكبر.. فالأولى.. أن يقال.. يرجى أن تنال هذا الأجر.

- وما الذكر الذي ينال به أعظم أجر؟

أظن أن أعظم أجر لذكر الله (أن يذكرك الله عز وجل).. هذا الأجر يكفي عن كل أجر آخر.. لأن من نسي الله أنساه نفسه وتركه ومن تركه الله.. هلك في الدنيا والآخرة.

الشكر.. نصف الدين

ـ الشكر عبادة عظيمة أوجبها اللّه على عباده ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ (البقرة)، ووصف بها رسله، فقال عن رسوله نوح صلى اللّه عليه وسلم: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإسراء)، وكذلك عبده إبراهيم صلى اللّه عليه وسلم: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ (النحل)، وقال محمد بن عبداللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**أفلا أكون عبداً شكوراً**» (متفق عليه).

ثم وعد عباده الشاكرين بالجزاء العظيم ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ (آل عمران).. وحذر من عدم الشكر وسماه كفراً ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (النمل) وجعل خاتمة جزاء أهل الجنة شكرهم ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ (الإنسان).

قاطعني...

ـ كل هذا معلوم.. ولكن كيف يكون الشكر نصف الدين؟

ابتسمت له لجديته في السؤال..

ـ ألم يقل الرسول صلى اللّه عليه وسلم: «**عجباً لأمر المؤمن فإن أمره كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**» (مسلم) ثم ألم يصنف اللّه

عباده، فقال: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان) فالمرء بين الشكر والصبر.. يحقق الدين..

استمر في إصراره...

ـ كيف؟!

ـ الشكر.. كما هو في اللغة ظهور أثر العلف على الدابة فتسمن كثيراً لقليل العلف.

وفي الشرع.. ظهور أثر النعمة على اللسان بالثناء وعلى القلب بالاعتراف وعلى الجوارح بالانقياد.. ومن شكر زاده الله ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (إبراهيم).. وأعظم النعم الهداية.. فيجب أن نشكرها.. بعبادة الله.. وتقواه.. واجتناب ما حرمه.. ثم العافية.. فنشكر الله بتسخير طاقاتنا فيما يرضيه.. ثم المال فنؤدي حقه بالزكاة والصدقة.. ونتجنب الإسراف والتبذير.. ثم الوقت فنستغله فيما يرضي الله.. ثم الجوارح.. من سمع وبصر.. فنستعملها فيما يرضي الله.

وهكذا نرى أن العبد الشاكر.. لا يكون شاكراً إلا إذا حقق العبودية لله عز وجل.. وهذا نصف الدين.. والنصف الآخر.. الصبر على هذه الطاعات إذا تكاسلت النفس والصبر على المصائب.. فيستقيم أمر المرء بين الصبر والشكر..

ـ وأيهما أسهل؟

ـ الصبر.. أسهل من الشكر.. لأنه لابد منه.. أما الشكر فإن العبد يؤديه راغباً فيه مؤمناً بوجوبه.. آملاً في رضا الله.. خائفاً من غضب الله.. ولذلك وصف الله عباده الشاكرين بأنهم قليل ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ (سبأ).. بل الشيطان تعهد أن يصرف الناس عن هذه العبادة العظيمة.. ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ (الأعراف).. فكان جزاء هؤلاء الجاحدين الكافرين الذين اتبعوا الشيطان ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ۝٦٣﴾ (الإسراء).

الدعاء.. على من ظلمك

في لحظة هدوء أثناء فترة راحتنا في السفر التفت إلي صاحبي.. قال.. هل تعلم لو علمت أن الله سيستجيب لي الآن .. بماذا أدعو؟

خطرت ببالي إجابات عدة... الجنة... التوفيق والصلاح للأبناء...

شفاء والده... أمور أخرى ولكن أجبت...

-كلا... بماذا ستدعو؟...

-أدعو الله ألا يوفق (فلاناً)... وأن يريني فيه يوماً يشفي فيه صدري ويذهب غيظ قلبي...

تعجبت من أمور لا أدري أيها أكبر... من شدة إصراره... من عمق غيظه... من صدق انفعاله... وما كنت أظن أن صاحبي من هذا النوع الذي يحمل كل هذا الغيظ..

- ولم ذاك يا أبا خالد؟! ولا أريد أن أعرف السبب... ولكن ما عهدتك.. وربما لم أكن أعلم... أنك قد تحمل كل هذا الغيظ في قلبك...

أجابني... مبرراً شعوره..

- رجل... لا يصلي... ولا يحب الصلاة... ولا يحب المصلين... يكره كل ما هو مرتبط بالدين والمتدينين ويستهزئ بهم... يتصرف وفق مصالحه الشخصية... يقرب من ينافقه.. ومن يغطي عيوبه.. قاطعته...

ـ كل هذا نعلمه منذ أكثر من عشرين سنة... ما الجديد.. ولا أظن أن غيظك هذا ينبع لأي سبب من هذه الأسباب التي ذكرت... ولكن ربما لأنه عمل ضد مصلحتك في العمل وكان سبباً أن نال المنصب سواك بسببه...

سكت صاحبي... تردد.. قبل أن يجيب..

ـ هذه كانت القشة التي قصمت ظهر البعير...

لم أخف اعتراضي عليه..

ـ هذه قشة «دنيوية»... وأحدنا لا يحب ويبغض لأجل الدنيا... كما كنت تحدثنا دائماً...

وإذا أردت أن تبغض لأجل الآخرة... وإرضاء لله... وهو المطلوب من كل مسلم... فليس لك أن تحمل كل هذا الغيظ في قلبك... فإن لنا في رسول الله أسوة حسنة آذاه قومه... وهو يريد لهم الخير.. ويدعوهم إلى النجاة.. وصفوه بالكذب والجنون.. وكانوا قبل ذلك يسمونه.. (الصادق الأمين).. آذوه في بدنه.. ومن خلال قومه.. فما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا الصبر.. والدعاء لقومه بالهداية!!! نعم.. لن نكون مثل النبي صلى الله عليه وسلم.. ولكن هو قدوتنا نزعم أننا نريد أن نتخلق بأخلاقه.. ثم.. ما قيمة أن يستجيب الله لك ويصيب (فلان) ما يشف صدرك ويذهب غيظ قلبك؟! أليس الأولى بك ـ إن كانت لك دعوة مستجابة ـ أن تجعلها في صلاح الإمام كما قال الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ أو تجعلها في صلاح أبنائك

وهدايتهم.. أو تجعلها في أن يرزقك اللّه حسن الخاتمة.. أو تكون من أهل الجنة دون عذاب في النار.. هذه هي الغايات السامية للمؤمن.. أما أن تجعل دعوتك - المستجابة - في ضرر إنسان أخطأ عليك في أمور الدنيا.. أو كان سبباً في أن منعك شيئاً من حطام الدنيا.. فاعلم أنه لو كتبه اللّه لك ما تعداك.. ولكن كتبه لغيرك.. فلم يصل إليك..

قاطعني...

- وهل الدعاء على الظالم.. حرام؟

- كلا.. بل دعوة المظلوم مستجابة «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينه وبين اللّه حجاب**» (البخاري).. ولكن هناك شيء أولى من شيء.. لو كانت لك دعوة واحدة مستجابة. هل تجعلها على من ظلمك.. وتحرم نفسك الخير.. أم تجعلها فيما ينفعك في الدنيا والآخرة.. وتجعل دعاءك على الظالم أمره إلى اللّه عز وجل وأن تتيقن بأن دعوة المظلوم مستجابة.. إذاً كان حقاً قد ظلم!!

الجزم بالثواب

أخذ مكانه على الطاولة مستقبلاً المصلين وبعد أن حمد اللّه وصلى على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بدأ حديثه بالحث على البقاء لسماع درسه ـ «اعلموا أنه من يمكث لدقائق معدودة فإنه ينال أربع خصال.. تحفه الملائكة.. وتغشاه الرحمة.. وتنزل عليه السكينة.. ويذكره اللّه فيمن عنده.. فهل يفرط أحد بهذه الأمور إلا ظالم لنفسه».. كنت في طريقي للخروج من المسجد لاستقبال ضيف في منزلي.. بعد العشاء هاتفته وأبديت له بعض الملاحظات على درسه...

ـ ومن الأمور التي ربما ينبغي التنبه لها.. عدم الجزم بالثواب.. فإنه ليس كل من يحضر درساً أو مجلساً للذكر ينال الأجر الذي ذكرته..

قاطعني...

ـ ولكن الحديث صريح في ذلك وجزم به الرسول صلى اللّه عليه وسلم حين قال: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللّه يقرؤون كتاب اللّه ويتدارسونه بينهم..**» (صحيح الترغيب والترهيب).

ـ نعم هذا الكلام صحيح... وهذه الصيغة بذكر الأجر وردت في كتاب اللّه عز وجل... ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ١٠٧﴾ (الكهف).. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ (فصلت).. وغيرها كثير من الآيات والأحاديث التي فيها وعد اللّه للمؤمنين والصالحين.. بالجنات والنعيم والفردوس.. كلها تحمل على

مبدأ (كمال الأجر مع كمال العمل).. فإن الله يذكر الحد الأعلى من الأجر.. ليسعى إليه المؤمنون.. ولكن أحدنا لا يجزم أنه ينال الحد الأعلى من الأجر لمجرد أنه عمل العمل.. بل يرجو أن ينال الأجر المذكور.. سواء في الآيات أم في الأحاديث.. بل وصف الله عباده بأنهم: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (المؤمنون) أي يعملون الصالحات ويخافون ألا يتقبل منهم.. فالمرء يعمل الصالحات ويرجو أن ينال الأجر الكامل... ولكن قليل من يبلغ هذا.. كان صاحبي منصتاً على الجهة الأخرى من الهاتف.. تابعت حديثي..

ثم كنت قاسياً بعض الشيء في اتهام من يترك المجلس بأنه (ظالم لنفسه).. فالنبي صلى الله عليه وسلم حتى في عدم الإقبال على الصلاة عند سماع الأذان استثنى فقال «**لا صلاة له.. إلا من عذر**» (صحيح الترغيب والترهيب).. فكان ينبغي أن تعذر من يترك درسك.. وتلتمس له العذر.

ـ أظن أن هذا الأمر مفهوم.. دون أن أذكره..

ـ نعم هو مفهوم على العموم، ولكن إذا تكلم أحدنا ولا سيما إذا كان هو الذي سيلقي الدرس فينبغي أن يرفق بالناس وخاصة من يغادر منهم ويلتمس لهم الأعذار.. ولا يتوعدهم لأجل أنهم لم يجلسوا لسماع الدرس.. والناس فيها الخير وحب الدين وحب سماع الموعظة بالفطرة.. وهذا الذي يترك مجلس الدرس إما أنه مرتبط بموعد مسبق.. أو منشغل بأمر لو جلس في الدرس لكان بدنه هنا وذهنه هناك.. وربما أبغض مسألة الجلوس.. فالذي يغادر له عذره.. والذي يجلس نرجو أن ينال الأجر كاملاً ولا نحاكم المغادر ولا نجزم بالأجر للجالس.

أصل الأجر... ومضاعفاته

في رحلتنا الأخيرة للعمرة وكانت في شعبان الماضي قررنا أن نبحث حديث النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**عمرة في رمضان تعدل حجة**» وفي رواية «**كحجة معي**» (البخاري).

ـ وهل هناك حديث يبين ميزة الحجة مع النبي صلى اللّه عليه وسلم عن غيرها من الحج؟!

ـ يكفي في ذلك صحبة النبي صلى اللّه عليه وسلم.

قاطعته..

ـ ولكننا لا نتحدث عن رؤية النبي صلى اللّه عليه وسلم. ولا صحبته. ولا الخير العظيم في معيته. ولكن عن الحج. كعبادة. مثل «**أن الصلاة في المسجد الحرام تعدل مئة ألف صلاة**» (صحيح الجامع الصغير) وقيام ليلة القدر ﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ٣﴾ (سورة القدر).. هذا المقصود.

كنت وصاحبي في طريقنا ضحى اليوم التالي نبحث عن مكتبة معينة.

ـ لا أعرف حديثاً يبين مضاعفات أجر الحجة مع النبي صلى اللّه عليه وسلم ولكن سأبحث في الحاسوب الذي يجمع كل كتب الحديث بعد تحقيقها.

ـ أظن أن معظم الناس يبالغ في حرصه على (عمرة رمضان).

فترى كثيراً منهم. يكذب ليحصل على (إجازة مرضية) يذهب فيها للعمرة!! وبعضهم يترك واجباً عليه في وظيفته دون إذن المسؤول فيذهب للعمرة!!

ـ هؤلاء يحرصون على هذه العبادة في رمضان؛ لأن العبادات تضاعف في هذا الشهر الكريم.

ـ نعم، هذا يعرفه الجميع، ولكن تبقى العمرة سنة. ولا ينبغي (التحايل) والكذب لأدائها!! ثم الحديث أنها تعدل حجة. وهناك حديث آخر يبين أن «**من صلى الفجر في جماعة ثم جلس في مصلاه يذكر الله عز وجل حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كتبت له حجة وعمرة تامة تامة تامة**» (صحيح الجامع الصغير).. وفي رواية (غير ناقصة).. فهذا عمل أسهل وأجره أعظم.. لا حجة فقط.. بل حجة وعمرة تامتان.

ـ وهل يحصل المرء على الأجر كاملاً بهذا العمل اليسير؟!

ـ هناك قاعدة في هذه الأمور. مثل أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن. فمن قرأها ثلاث مرات كتبت له ختمة كاملة. ومثل حديث مضاعفة أجر الصلاة في المسجد الحرام أو في المسجد النبوي.. وغيرها من الأحاديث.. القاعدة أن المراد هنا أصل الأجر دون التضعيف الحاصل من الفعل.

ـ هل لك أن تبسط الأمر وتشرحه!!!

ـ مثلاً «**الذي يقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات يحصل على أجر**

ختمة» (أصله في مسلم)... أما الذي يختم القرآن على الحقيقة فإنه يمكث وقتاً أطول.. وأثناء قراءته.. ينال أجر استغفار الملائكة. وأجر المكوث في المسجد، وأجر التعب أثناء القراءة، وأجر الدعاء أثناء القراءة. وأجر تعلم العلم الشرعي إذا قرأ تفسير بعض الآيات. وأجر إسماع أحد آخر إذا كان معه أحد. وأمور أخرى كثيرة تجعل أجر الختمة فيه من المضاعفات. وهذا لا يحصل لمن يقرأ الإخلاص ثلاث مرات.

نعم أصل الأجر متساو في الحالتين، ولكن مضاعفات الأجر لا تكون إلا لمن يأتي بالعمل نفسه. وهكذا نقول عن صيام رمضان ثم ست من شوال.. أجره كأجر صيام الدهر. في أصل الأجر وليس في مضاعفاته. وكذلك أجر من بقي في المسجد بعد الفجر إلى طلوع الشمس ثم صلى ركعتين له أصل أجر الحجة والعمرة فقط لا مضاعفات الأجر.. لتعب السفر. ونفقة السفر، والصلاة في المسجد الحرام. وحضور دروس العلم. والمكوث في المسجد، وغير ذلك مما يضاعف الأجر فإنه لا يكون إلا لمن أدى الحج والعمرة على الحقيقة.

إثم.. في طاعة!!

ـ لا شك أن من جعل طاعته مصدر إثم قد خسر خسراناً مبيناً.

ـ وكيف يمكن أن تكون الطاعة مصدر إثم؟!

ـ بأمور كثيرة، أن يجعلها لغير الله، أن يغتر بها، أن يؤديها على غير وجهها، أن يقدمها على طاعة أوجب منها.. فهذا من الإثم.

قاطعني..

ـ هذه الأخيرة.. ماذا تعني بها؟

ـ مثلاً صلة الرحم طاعة، ولكن إذا كانت سبباً في عدم الصلاة، وبقي المرء جالساً مع أقربائه، والصلاة تقام، ولم يصل، يقول أنا في طاعة..

ـ أعطني مثالاً أفضل لأن هذا المثال ضعيف في إيصال المعنى.

ـ مثال آخر، امرأة تبر والديها، على حساب قيامها بواجبات زوجها، فتهمل الزوج، وتخدم الوالدة، بل ربما عصت زوجها في طاعة والدها، هذا البر ليس بطاعة بل هو إثم لوقوع ذنب أعظم..

ـ كان هذا حوارنا أنا وصاحبي حينما كنا في طريقنا لزيارة أخ لنا في الله..

ـ مثال آخر، أن يخرج أحدهم للدعوة، ويترك أهله بلا معيل، وربما لم يبق لهم ما يقتاتون به فهو في سنّة، ضيع معها واجباً، فأصبحت مصدراً للإثم.

ـ ومثقال آخر، أدركت أحدهم الصلاة، فخرج من بيته مسرعاً بالمركبة وكان سبباً في هلاك أو تلف الآخرين.

ـ وكيف للمرء أن يتجنب كل هذا؟!

ـ بالتفقه الصحيح في دين اللّه، فإن اللّه أمرنا بطاعته، وجعل الأمر مرتباً، هناك فرائض مؤقتة بأوقات، لا ينبغي تفويتها تحت أى ظرف، وهي الصلوات، وهناك فرائض تجاه الأهل، ترتب بالآباء والأبناء والزوجات للرجال.. والأزواج. والأبناء والآباء للنساء، والجيران والأقارب كل حسب مكانه، وخطر على بالي للتو حادثة، أخبرتني بها إحدى الأخوات، تقول: أصابني ألم شديد صبيحة الجمعة، فأخذني زوجي للمستشفى قرابة أذان الجمعة، طلبت منه أن يصلي في المسجد القريب من المستشفى ولكنه ذهب إلى مسجد يبعد نصف ساعة بالمركبة، وذلك أنه اعتاد الصلاة في ذلك المسجد، تقول: انتهيت من العلاج قبل الصلاة، وبقيت بآلامي لأكثر من ساعة ونصف لأنه ذهب لأداء صلاة الجمعة في المسجد الذي اعتاده.. هل يجوز هذا الأمر؟!

بلغنا المكان الذي نريد، ولكننا اضطررنا أن نتوقف لنسأل أحد المارة لتشابه الأماكن، وعدم وضوح الأرقام.

تابعنا الطريق بعد أن حصلنا على الإرشادات من صاحبنا عبر الهاتف.

ـ ينبغي على المسلم ألا يقدم سنّة على فريضة، ولا مستحباً على واجب وأن يأتي بالطاعة كما أمر بها الرسول صلى اللّه عليه وسلم،

فمثلاً نهانا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نأتي الصلاة «سعياً» لأجل إدراك الركعة» (صحيح ابن ماجه)، أو حتى الصلاة، بل نأتيها بسكون ووقار، وما أدركنا نصلي، وما فاتنا نقضي، هكذا هي الطريقة الصحيحة لأداء هذه العبادة، فإن أداء العبادة وفق آرائنا وأهوائنا يجعل الطاعة مصدر إثم لا مصدر أجر، وكذلك ترتيب الطاعات وفق أهوائنا يوقعنا في الإثم ولا يوصلنا للأجر.

أعمال.. تضيع الأجر

«لكل إنسان نقاط ضعف ونقاط قوة.. حتى في الدين».

«بو محمد». رجل يعجبك بحرصه على صلاة الجماعة وخاصة الفجر.. يعجبك بتبكيره للصلاة.. حتى قبل الأذان تجده جالساً في المسجد.. يعجبك بكثرة قراءته للقرآن.. يحمل دائماً جزءاً من المصحف في جيب «دشداشته» العلوي.. يعجبك بخدمته لأهل المسجد وحرصه على المبادرة في الأعمال الخيرية سواء في الإفطار خلال شهر رمضان.. أو بالإشراف على إجراء التحسينات في المسجد... ومع ذلك.. تبغض فيه: كثرة المزاح والكذب فيه.. تبغض فيه فحش العبارات والحركات.. تبغض فيه كثرة الحلف على غير علم ولا بينة.. تبغض فيه تسرعه وحدته في اتخاذ المواقف... تبغض فيه ارتفاع صوته في المسجد.

صاحبني ذات مرة - ضمن خمسة أفراد - في رحلة برية.. كانت المرة الأولى التي يخرج معنا.. بذلت له بعض النصائح قبل أن نجتمع لبدء الرحلة.. حيث أني أعرف هؤلاء وهو لا يعرفهم.. حان موعد الأذان.. فسبق الجميع للأذان بصوته الجهوري.. أدينا الصلاة.. كانت السُفرة معدة من قبل.. بدأ المزاح.. ما أن تأقلم مع الجو حتى عاد إلى طبعه.. بمزاح قبيح فاحش.. تركت المجلس وصاحبي.. نتمشى.. بينما استمر الثلاثة الآخرون في مزاحهم.. يرأسهم «بو محمد».

بعد ساعة رجعنا للغداء.. تعمد صاحبي أن يطلب مني درساً على هيئة سؤال.. عن أمور تضيع الأجر..

ـ أكثر ما يضيع الأجر: المراءاة بالعمل والتسميع، فيدخله الرياء؛ فيحبط الأجر بقدر الريا فيه.. وإذا كان كله رياء من البداية كان إثماً عظيماً ووزراً يوم القيامة، ففي الحديث عن عباد بن تميم عن عمه مرفوعاً: «**يا نعايا العرب.. يا نعايا العرب.. يا نعايا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية**» (السلسلة الصحيحة).

ثم أعظم ما يضيع الأجر: الإثم بعد الطاعة: كمن يصلي ثم يمشي بالنميمة... ويسبّح ثم يجلس للغيبة.

ثم المَنّ والأذى على من تصنع له معروفاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدًاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٍ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ (البقرة).

ومن أسوأ ما يضيع الأجر: الكذب في المزاح.. والحلف على باطل.. والكلام الفاحش، فإن هذه ليست من أخلاق المؤمن، ففي الحديث: «**ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء**» (السلسلة الصحيحة).

ومما يذهب الأجر: أذى الناس.. ولو باللسان.. وكلكم يعرف حديث المفلس.. وهذه الأمور لا تنفع معها توبة إلا برضا المتضررين منها وإرجاع الحقوق لهم.. فمن اغتاب.. أو نَمَّ.. أو سب.. أو ضرب أحداً.. فلابد أن يمكن من آذاه من القصاص حتى يخرج من ذنبه.. وإلا أخذ من حسناته يوم القيامة على قدر مظلمته وأذاه.

الإيمان بالرسل

بعد قراءتنا اليومية في كتاب (موجز الفقه الإسلامي) للشيخ التويجري حفظه الله وكانت القراءة في باب (الإيمان بالرسل).. رافقني صاحبي في السير إلى المنزل..

ـ أول مرة أعلم أن الأنبياء بلغ عددهم (١٢٤٠٠٠) مائة وأربعة وعشرين ألف نبياً، والرسل ثلاثمائة وخمسة عشر رسولا .. (جم غفير) (صححه الألباني).. ومع ذلك يأتي النبي يوم القيامة ومعه رجل واحد فقط آمن به.. ويأتي النبي ومعه الرجلان.. ويأتي النبي وليس معه أحد.

علقت على عجبه مذكراً...

ـ ألم يقل الله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر). وكذلك ﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء)؛ فالغالب أن جميع الناس أتاهم رسول أو نبي من عند الله ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (النساء)، وهذا منذ أنزل الله آدم إلى الأرض وإلى مبعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم فإنه لا نبي بعده.

إلتقط صاحبي قطعة زجاج مكسورة من وسط الطريق ورماها في حاوية القمامة.. سألني..

ـ وهل جميع هؤلاء الأنبياء والرسل أوحي إليهم؟!

ـ إن كنت تقصد بالوحي أنهم أنزل عليهم كتب وتشريع خاص بهم فالجواب (لا)... أما أنهم أوحي إليهم بأنهم أنبياء من عند اللّه وكلفوا بأن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر وأن يدعوا الناس إلى التوحيد وعبادة اللّه وحده.. فالجواب (نعم).. كما قال اللّه تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء).. فهناك أمور خاصة بجميع الرسل.. منها.. أنهم معصومون فيما يبلغونه عن اللّه عز وجل.. وأنهم معصومون عن الرذائل من التصرفات والأخلاق وأنهم في قبورهم يصلون وأنهم يدفنون حيث يموتون وأن اللّه يبعث لهم ملك الموت يستأذنهم ـ تكريماً لهم ـ لا تغييراً للأجل.. وأنهم يتفاضلون كما قال اللّه تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ (البقرة)... وأنهم جميعاً من الرجال البشر.. فلا نبي (امرأة).. ولا نبي من (الجن).. وأنهم يأكلون ويشربون ويموتون كبقية البشر..

ـ ماذا عن بعض (الأخطاء) إن صح أن نسميها كذلك ـ لبعض الأنبياء ـ مثل يونس ـ عندما ترك قومه دون إذن ربه.. ومثل الذي قتله موسى.. ومثل الذي حكم له داود دون أن يسمع حجة الآخر.

ـ هذه التصرفات من الأنبياء لا تقلل من قدرهم بل نبههم اللّه إليها في حينها وتابوا منها، فجبروا ما وقع منهم.. فـ (ذو النون) إلتقمه الحوت فدعا ربه.. ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (الأنبياء).

وداود تنبه إلى الخطأ.. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا

وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ (ص).. وموسى (وكز) الرجل ولم يقصد قتله.. ثم تاب وكانت هذه الحادثة قبل أن يبعث.

- وماذا عن رسولنا صلى الله عليه وسلم، بم تميز عن سائر الرسل...؟

- رسولنا صلى الله عليه وسلم تميز بأمور كثيرة.. ولكن أتدري أعظم شيء أشعر به تجاه هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.. أشعر دائماً أننا مقصرون تجاهه.. هو (الحريص) علينا (الرؤوف الرحيم) بنا.. ينادي ربه.. يوم القيامة.. (أمتي.. أمتي).. ويشفع لكل من يسمح له ربه أن يشفع له، وإن كان من أصحاب الكبائر.. ومع ذلك يأتي أحدنا فيقول: (هذه سنة ليس من الواجب اتباعها). على أية حال.. أسأل الله أن يصلح أحوالنا لقد تميز رسولنا صلى الله عليه وسلم بأنه أرسل للناس كافة.. بل للإنس والجن جميعاً.. فلا يسع أحداً بعد بعثته إلا أن يتبعه مهما كان دينه.. وتميز صلى الله عليه وسلم بأنه صاحب المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة (القرآن الكريم)... وأنه لا نبي بعده. وأنه صاحب الشفاعة العظمى يوم القيامة.. التي يحمده عليها جميع الخلق.. وأنه صاحب أعظم حوض يوم القيامة وأكثر الأنبياء تبعاً.. وأنه نصر بالرعب مسيرة شهر.. وأنه الوحيد الذي أحلت له الغنائم.. وأنه صلى الله عليه وسلم جعلت له الأرض مسجداً وطهورا.. وبعد.. أليست نعمة ومنة عظيمة من الله أن يولد أحدنا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم لغة القرآن ويعيش في بلاد تحيي شعائر الله التي أتى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اللهم فلك الحمد.. حمداً طيباً لا ينقطع على هذه النعمة العظيمة.

أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم

في رحلة قصيرة إلى عمان (الأردن) كان ضمن برنامجي زيارة موقع مؤتة، والبحر الميت، وأصحاب الكهف.. صاحبي (عصام).. وبعد أن عرضت عليه رغبتي علق مبدياً رأيه...

ـ أما مؤتة.. والكهف فلا بأس.. والبحر الميت.. أليس من الأولى ألا نذهب إليه.. حيث إنه مكان قرية لوط التي خسف الله بها نتيجة إصرارهم على الفاحشة؟

ـ لا أجزم أن الذهاب إليه (محرم).. فإنني لا أفتي ولم أقرأ فتوى بذلك..

ـ في اليوم التالي.. وبعد أن أستأجرنا مركبة جديدة أتاني عصام وعائلته لقضاء يوم سياحي وفق برنامجنا السابق.. توليت القيادة.. وبدأنا الرحلة تمام العاشرة صباحاً..

كان الحديث حول تربية الأبناء.. وأحوال الأمة.. وبعض القضايا الشرعية.. سألتني (أم حسين)..

ـ قرأت كتاباً يصف الرسول صلى الله عليه وسلم.. بأنه لم يكن له ظل!!

لم أترك لها مجالاً بأن تكمل فقلت:

ـ القاعدة في ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بشر في جميع

أوصافه.. إلا ما ثبت خلافه، ولم يثبت أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم لا ظل له.. في حديث صحيح.. ففي كتاب اللّه قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (الكهف).. والرسول صلى اللّه عليه وسلم لا يريد منا أن نضفي عليه صفات لم تكن فيه.. يكفيه ما شرفه اللّه به.

تابعت حديثها..

- بل وفي بعض (الآثار) أنه إذا دخل الخلاء لم يخرج منه شيء..

قاطعتها جازماً..

ـ إن معتقد أهل السنة والجماعة أنه صلى اللّه عليه وسلم.. بشر وأنه في العوارض البشرية مثل سائر البشر.. وأن له آباء وأبناء وأزواج ومأكل ومشرب وحوائج بشرية.. وأنه مركب من اللحم والشحم والعظم.. وخالف في ذلك جماعات من المتصوفة والبريلوية وغيرهم.. من القبورية.. فيقولون: إنه نور لا بشر.. وإنه لا ظل له..

قالت:

ـ هل لك أن تذكر لنا شيئاً مما تميز عنه صلى اللّه عليه وسلم عن البشر..

ـ مثل نهيه صلى اللّه عليه وسلم أمته عن الوصال.. وهو مواصلة الصوم ليومين أو أكثر دون أكل.. وكان صلى اللّه عليه وسلم يواصل.. فلما

قيل له.. قال: «**إني يطعمني ربي ويسقيني**» (البخاري).. فهذه خاصة للرسول صلى اللّه عليه وسلم.. وعرفناها بما ثبت عنه.. كان الأطفال في المقعد الخلفي يتمازحون.. ثم انقلب مزاحهم إلى شجار فأسكتهم والدهم وعاقبهم بحرمانهم جميعاً من الألعاب التي كانت بأيديهم.. سألني..

ـ ويقول الساكنون قرب (مؤتة) إنهم كل عام يسمعون أصوات خيل ويرون خيول وفرسان.. وبصراحة لا أصدقهم..

ـ كل عام في موعد موقعة مؤتة بالتاريخ الهجري أم الميلادي؟ هذه من الأمور التي ينشرها بعض الناس فيقبلها الباقي دون سؤال، وكأن في ذلك مزية لأهل المكان.. أو تشريف لأولئك الصحابة.. وكلا الأمرين غير صحيح.. فشهداء مؤتة أخبر عن مكانتهم الرسول صلى اللّه عليه وسلم زيد بن حارثة وجعفر ابن أبي طالب وعبد اللّه بن رواحه والآخرون.. في الجنة.. فلن يزيدهم أحد شيئاً بعد رضى اللّه عليهم.

الذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم!

تابع العالم أجمع ردة فعل العالم الإسلامي ضد بعض الدول الأوروبية التي نشرت صحفها صوراً تسيء إلى خير البشر صلى الله عليه وسلم..

كنت في ضيافة صاحبي بمناسبة انتقاله إلى المكتب الجديد..

- أعجب من أولئك الذين يخرجون هاتفين لنصرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهم أبعد ما يكونون عن سنته.. بعضهم لا يعرف الصلاة.. وأغلبهم لا يتبع السنة.. ومع ذلك يندون بالنصارى واليهود والكفار الذين يستهزؤون برسول الله صلى الله عليه وسلم في بلادهم.

- ماذا تعني؟ هل تعارض من ناصر الرسول صلى الله عليه وسلم؟

قالها صاحبي مستنكراً..

- كلا.. والعياذ بالله.. بل نصرة الرسول صلى الله عليه وسلم فرض عين على كل مسلم.. ولكني أقول.. إنه من غير المستغرب أن يستهزئ الملحدون بالرسول صلى الله عليه وسلم.. بل إنهم يستهزؤون بأمور الآخرة وبالرب عز وجل، لأنهم لا يؤمنون بشيء.. فالجميع يعلم أن كثيراً من الغربيين يعلنون - وبشكل طبيعي - أنهم لا يؤمنون بشيء.. لا بإله ولا بآخرة.. ولا بجنة ولا بنار.. بل وترى كثيراً من هذه العقائد في صحفهم.. وأفلامهم.. كل يوم.. ولا شك أن الاستهزاء بالرب عز وجل أعظم من الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم.. أقول من غير المستغرب أن

يستهزئ الكفار برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.. ولكن ما تبرير من يستهزئ من المسلمين بسنة الرسول صلى اللّه عليه وسلم؟!

قاطعني..

- وهل هنالك من يستهزئ من المسلمين بالرسول صلى اللّه عليه وسلم؟!

- قلت: هناك من يستهزئ بسنة الرسول صلى اللّه عليه وسلم، وهناك من يحارب سنة الرسول صلى اللّه عليه وسلم.. وهناك من يدعو لإيقاف تعاليم الرسول صلى اللّه عليه وسلم.. وهناك من يؤذي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في أهله وزوجاته وصحابته.. وهؤلاء ينتمون إلى الإسلام ويزعمون أنهم من محبي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

- ولكن ما صدر عن الغرب لا يمكن السكوت عليه..

- أنا معك.. وينبغي أن يكون التعامل مع هذا الأمر إيجابياً لا مجرد رد فعل.. إيجابياً بأن نحيي سنته.. ونتبع هديه.. ونقيم الندوات الدعوية في أوروبا.. لبيان تعاليم المصطفى صلى اللّه عليه وسلم.. وننشر هذه التعاليم.. بعد أن نكون من أهلها.. أما ردة الفعل.. من مظاهرات ومقاطعات.. وحرق أعلام.. وتخريب سفارات.. فهذه ردود أفعال آنية.. وربما بعض من يقوم بها يتنكر لسنة النبي صلى اللّه عليه وسلم.. ويهجر تعاليمه.. ولا يعرف عن سيرته شيئاً.. ولا عن هديه شيئاً.. فهل هذا يظن أنه بعمله هذا قام بالواجب تجاه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم...

لم يعجب صاحبي بما أقول.. تابعت الحديث..

- إن وجهة نظري.. أن حب النبي صلى اللّه عليه وسلم وتعظيمه ونصرته.. تبدأ بأن نعيش مع سيرته ونتعرف على تعاليمه ونطبقها في عباداتنا ومعاملتنا وحياتنا مع أسرنا وتربية أبنائنا.. وأن ندعو إلى هديه ونشر تعاليمه في فضائياتنا ونقيم الندوات والمؤتمرات على مدار العام لنصرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم بين أهلينا وفي بلادنا.. ثم في بلاد الغرب..

الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم

أقاطع «الجزيرة» منذ زمن بعيد لتناقضها، وشخصانية العاملين فيها، ومزاجية القائمين عليها، وانتهاجها الإثارة.

أتابع «العربية» لمعرفة آخر المستجدات، شدني «مهمة خاصة»، عن الأهوار. شاء اللّه أن أتابع «المهمة» على غير عادتي ـ ظهر مراسل «العربية» في ضيافة بعض سكان المنطقة بعد تناول طعام الغداء، ذكر مراسل «العربية» حديثاً نسبه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حيث قال: «إذا جلست مع ضيفك بعد الأكل جلست الملائكة عدا جبرائيل قيل.. لم يا رسول اللّه؟ قال: ينتظر الشاي» فطارت الضحكات من كل صوب.. عدا واحد منهم.. سأل المراسل هل هذا حديث صحيح عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟

أجاب:

ـ أنا مسلم وهذا الحديث صحيح بالنسبة لي.. لقد كذب هذا المراسل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وجاء في الحديث «**من كذب علي كذبة فليتبوأ مقعده من النار**» (صحيح الترغيب والترهيب) هذا المسلم تكلم عن الغيب بغير علم.. واستهزأ بالملائكة.. وجبرائيل خصوصاً عليه السلام هذا المسلم افترى على اللّه وذلك أن ما ينسب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليس إلا وحياً من عند اللّه بشهادة رب العالمين في قوله تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا**

وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ (النجم) هذا المسلم كذب ليُضحك الناس. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «**ويل له.. ويل له.. ويل له.. من كذب ليُضحك الناس**» (حسنه الألباني).

قاطعني..

- أراك أكثرت.. وشددت على هذا المسكين. وهو لا يدري.

- وهنا.. المصيبة.. الجاهل بأمور الدين ينبغي أن يحترم الدين كحد أدنى، أما أن يعطي الحق لنفسه أن ينسب حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول «هو حديث صحيح بالنسبة لي».. وكأنه أصبح يشرح من دون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويصحح ما اشتهى من أحاديث لمجرد أنه (مسلم).. أليس في ذلك استهزاء بما هو أهم من الشكل.. بالتعاليم.. بالمصادر.. بالغيبيات.. ومن استحل مثل هذا ربما يُوقع نفسه في الهلاك.

- هذا يحصل كثيراً في مجتمعات.. مثل العراق.. والشام.. والمغرب العربي..

- وليس هذا مبرراً.

- الأولى بمن يحتج على الدنمارك واستهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوقف هؤلاء أولاً ويحاسبهم بعد أن يعلمهم أن شريعة الله ليست مادة للمزاح.. وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ليست ميداناً للضحك وأن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست لمن هبّ

ودبّ لينسب إليها ما شاء ويخرج منها ما شاء.. هناك خطوط حمراء للمسلم - مهما كان جهله أو تقصيره - لا يتعداها، فالقرآن وحي من اللّه.. والسنة وحي من اللّه.. والغيب قضية ينبغي أن نؤمن بها لا أن نستهزئ في مجالسنا بها، فالجنة حق.. والنار حق.. من استهزأ بشيء من ذلك نال جزاءه تاماً بين يدي اللّه عز وجل.

هدى اللّه مراسل «العربية».

الإسناد... دين

مع سهولة إستحداث قناة فضائية.. أصبح كل صاحب فكرة ينشر فكرته، وكل صاحب عقيدة يبث عقيدته.. بين فينة وأخرى أشاهد فضائيات لأزداد إطلاعاً على ما يقوله الآخرون.. وسرعان ما أقلبها لما يصيبني من ضيق نتيجة تقوّلهم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم... وأزداد يقيناً بأن عقيدتنا هي الحق المبين الذي لا يعرض عنه إلا جاهل أو حاقد..

ـ أحمد الله أن حفظ ديننا بعلم الإسناد؛ فلا تكاد تذكر حديثاً أو تقرؤه وإلا يسألك أحدهم: هل هذا الحديث صحيح؟... على عكس الآخرين.. يصدقون كل ما يسمعون.. دون أن يتساءلوا: هل هذا الكلام يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.. أو عن أحد من أئمتنا؟.. أو عن الذي ينسبون إليه الكلام؟

ـ ومن أين لهؤلاء العامة أن يعرفوا ثبوت الحديث من عدمه؟

كنت وصاحبي في ديوانه الجديد.. يطلعني على آخر ما عمل من ترتيبات بإضافة مكتب مجهز بحاسوب وفاكس وآلة تصوير وجهاز تمزيق الورق.. أعجبني ما رأيت.. تابعت حديثي معه:

ـ أنا لا أطلب من العامة أن يكونوا علماء في الجرح والتعديل وتحقيق الأحاديث، ولكن أطلب منهم أن يسألوا ... مجرد سؤال: هل هذا الحديث ثابت؟ وذلك لأن الأحاديث إما عقيدة.. أو تشريع.. أو استحسان.. وكل

ذلك من الدين.. فينبغي على كل مسلم أن يتأكد أن ما يعتقده أو يعمله أو يتركه ثابت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.. أما أن يعمل لمجرد أن الملقي قال: «جاء عن بعض أئمتنا».. «ورد في بعض كتبنا».. «ورد في بعض الصحاح».. ثم يعتقد هذه القضية أو يعمل بها.. أو حتى ينشرها وهي حديث «موضوع» أو «باطل».. أو «كذب» على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أو أحد الأئمة.. فإنه دون شك ملام على ذلك.. ويقع في تحذير النبي صلى اللّه عليه وسلم: «**كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع**» (مسلم).. ويروي أحاديث تضمن للناس الجنة.. والشفاعة.. والنجاة من النار.. وهي أحاديث أقل ما يقال فيها أنها ضعيفة.. ومعظمها «كذب» أو «باطل».

- وما الحل وقد انتشرت الفضائيات وكثر المتحدثون والكل يلبس عمامة.. ويضع «بشتاً».. ويطلق لحية؟!

- الحل.. ألا يصدق المرء كل ما يسمع.. وأن يتثبت من الحديث قبل أن يعتقده أو يعمل به أو يبثه.. وذلك باستخدام البرامج التي تحقق الأحاديث أو بسؤال أهل العلم المتخصصين.. مثلاً.. حديث: «**من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي**» فهو باطل.. وحديث: «**من زارني بالمدينة محتسباً كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة**».. ضعيف.

قاطعني:

- وما الفرق.. بين الباطل.. والضعيف؟!

- لا شك أن الباطل أشد من الضعيف.. و«الكذب».. كذلك أشد..

ولكن لماذا يلجأ للضعيف فضلاً عن الباطل والكذب ولديه ما يغنيه من الأحاديث الصحيحة والثابتة عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم.. ولكن أرجع وأقول: الحمد للّٰه أن حفظ ديننا بعلم الإسناد.. وجزى اللّٰه علماء السنة عن الأمة كل خير أن حفظوا أحاديث رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم على عكس الطوائف الأخرى التي لا تعرف لهذا العلم مكاناً في عقائدها.

كيف تريد أن تموت؟

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾ (الأنبياء) هذه الحقيقة لم ينكرها أحد.. وذلك أنها تجربة يومية للجميع.. الملحد.. والكافر.. والمادي.. والطبيعي.. فلا استثناء على الإطلاق لقاعدة (الموت) ولا إنكار لها.

- فلا يملك أحد (ألا يموت).. ولا يملك (متى يموت).. ولا (أين يموت)..﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ٣٤﴾ (لقمان) ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًاۗ﴾ (آل عمران).. هذه الأمور خارج إرادة الإنسان.. ولكن في إرادته اختيار طريقة الموت.. وحاله التي سيموت عليها.. ولذلك قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾ (البقرة).

- لم أفهم؟!

- دعني أطرح عليك سؤالاً.. لو أعطيت الآن اختيار طريقة موتك كيف تريد أن تموت؟!.. فماذا تختار؟

- أختار أفضل الطرق التي تضمن لي حياة خالدة هنيئة بعد الموت.. مثلاً أختار أن أموت ساجداً لله في صلاة الجمعة عند الكعبة.. أو ربما وأنا محرم.. أعني يوم عرفة.. أو ربما وأنا خارج من بلدي أدعو إلى الله صادقاً.. أريد وجه الله لا رياء ولا سمعة.. هذه الميتة التي أتمناها..

تابعت اختياراته..

ـ أو ربما شهيداً في ميدان المعركة تقاتل في سبيل الله تبتغي وجه الله مقبلاً غير مدبر.. أو وأنت تخدم والديك أو أحدهما وهما شيخان كبيران تقوم عليهما حتى نلت رضاهما.. بل ودعاءهما الصادق لك..

قاطعني..

ـ المهم أن أموت وأنا في طاعة الله.. غير واقع في معصية.. وغير مصر على ذنب.. وليس لأحد علي حق..

ـ وهل يعجز الإنسان أن يموت وهو في واحدة من هذه الطاعات.. من كان صادقاً مع الله يصدقه الله.. هل تعلم أن عمر بن الخطاب كان يحب أن يموت شهيداً.. ويحب أن يموت في المدينة.. فكان يدعو الله بصدق: «**اللهم ارزقني الشهادة في مدينة نبيك صلى الله عليه وسلم**» فكان الصحابة يعجبون من هذا الدعاء.. وذلك أن لا قتال في المدينة.. فنال ما أراد.. ومات شهيداً في محراب رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والحديث الصحيح في ذلك معروف.. عن سهل بن ضيف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**من سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء.. وإن مات على فراشه**» (رواه مسلم).

وفي هذا الدعاء شرط واحد.. (الصدق)..

انضم إلينا (عدنان).. وهو (صاحب نكتة)..

ـ ولماذا لا تتحدثون عن موضوع آخر غير الموت.. أعوذ بالله..

ـ لأننا سنموت جميعاً.. ولا ندري متى.. بعد قليل.. الليلة.. غداً..

بعد سنة.. أو أكثر.. أو أقل.. نذكر أنفسنا بهذا الأمر لعل وعسى أن ننال الميتة التي نريدها..

ـ أما أنا فأريد أن أموت مرتاح.. وأن تستقبلني ملائكة الرحمة بالبشارة إذا انتقلت إلى الآخرة..

ـ ليت الموضوع.. أقوال.. وأماني.. تريد ذلك إعمل له..

ـ وهل يختار أحدنا كيف يموت؟!

ـ إذا بذلت الأسباب.. أعطاك اللّه.. فإذا أردت أن تموت على الطاعات احرص عليها.. وادع اللّه.. (اللهم اجعل خير أعمالي خواتيمها وخير أيامي يوم لقائك)، وإذا أردت أن يكون آخر قولك من الدنيا الشهادة (لا إله إلا اللّه) كن من أهلها.. واعمل بمقتضاها.. وادع اللّه أن يرزقك الشهادة.. فإن كنت صادقاً مع اللّه.. صدقك اللّه..

وصية ميت (١)

(ميت) بتخفيف الياء بمعنى المتوفى أما إذا شددت الياء فإنها تعني كل من سيموت وذلك من قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر) أي ستموتون جميعاً.. أنت يا محمد صلى الله عليه وسلم وهم كذلك.. فكل مخلوق (ميّت).. ومن مات فعلاً فهو (ميت).. وجمعه أموات!!!

زوجتي الحبيبة... الآن وقد هان عني ما لقيت من أهوال - ربما مؤقتاً - منذ فارقتكم دعيني أخبرك أموراً.. علها تنفعك أو تنفعني.. ابتداء أقدر لك وقوفك معي منذ تزوجنا.. فقد كنت خير المعين على أمور الدنيا.. بدأنا من الصفر.. وبنينا ثروة كبيرة.. ولكن في المقابل.. شغلتني هذه الأمور عن أمور أساسية.. نعم كنا في البداية نريد أن نعيش أغنياء.. ولكن لم نتوقف بعد أن جمعنا ما يكفينا.. أو ربما لم نستطع التوقف.. بقينا نجمع.. ونجمع.. ونسيت شيئاً اسمه (الصلاة).. ونسيت شيئاً اسمه (الزكاة).. وكنت تدفعينني لجمع المال وزيادته.. اسمحي لي أيتها الحبيبة.. إنني لا ألومك.. ولكن أخبرك بما كنا نعمل.. أنا.. وأنت.. لماذا كنا نجمع المال.. وننمي الثروة.. دائماً كانت هناك أسباب.. ودوافع في البداية.. ولكن بعد الألوف الأولى.. واقتنائنا كل ما نريد.. أصبحنا نجمع المال.. من أجل الجمع.. ومضاعفة الأرقام.. أتذكرين كنا نتحدى أنفسنا (كم مرة نستطيع أن نضاعف المال في عام واحد؟).. وأتاني داعي ربي.. وأنا في هذه الدوامة... منذ اللحظة الأولى... وروحي تفارق جسدي شعرت أنني كنت في حلم.. أفقت منه.. كنت في سكرة انتبهت منها.. ولكن بعد فوات الأوان.. ولو تعلمين

ما لقيت من أهوال.. والله.. لسعة واحدة منها.. أنستني كل ثروتي.. ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾﴾ (الحاقة) لماذا لم تذكريني بالصلاة؟! لماذا لم تحثيني على أدائها؟ لماذا لم نخرج زكاة مالنا؟ أتذكرين تلك السنة قبل الأخيرة عندما أردنا الزكاة؟ حسبناها فبلغت خمسة وسبعين ألف دينار تقريباً... فسكتنا وسوّفنا.. حتى تناسيناها.. دون أن نتحدث وكأننا اتفقنا على معصية ربنا.. أتعلمين ما الذي لاقيته لأني لم أخرج زكاتي؟ ليتهم يأخذون كل ثروتي ويرحموني من هول العذاب لترك الزكاة فقط.. إنني لا ألومك.. ولكن أخبرك.. وأظنني على يقين أنك لن تصلك رسالتي هذه..

أبنائي.. أحبائي.. كنتم في البداية.. وأنتم صغار.. دافعي الأكبر لأعمل وأجتهد وأكوّن لكم ثروة.. وسكناً.. ورفاهية.. وكبرتم ولم تروا شيئاً من تعب الدنيا.. وكلما خطر على بالكم شيء.. أتاكم دون أن تطلبوه.. والآن.. آلت إليكم كل الأموال.. وبدأتم حياتكم أغنياء.. ولكن أريد أن أعتذر لكم.. نعم.. أعطيتكم الدنيا على طبق من ذهب.. ولكن لم آمركم بما ينفعكم يوماً.. لم أنهكم عن معصية.. ولم آمركم بطاعة.. لا أدري ما الذي كنتم - ولا زلتم - تعملونه.. ولكني على يقين أنكم لم تكونوا تصلون الصلوات الخمس - حتى في رمضان - وكيف لكم أن تحافظوا على الصلاة وأبوكم مضيع لها.. أرجوكم السماح على تقصيري تجاهكم فيما يجب عليكم تجاه ربكم.. فإني لقيت ما لقيت لأني ضيعت أمانة تربيتكم.. وتنشئتكم.. على ما يرضي الله.. فهلا قدم أحد منكم إحساناً تجاه أبيه.. وهو لا حول له ولا قوة.. هل لكم أن تتجهوا إلى ربكم.. هل

لكم أن تدعوا لأبيكم.. وتحجوا عنه.. وتستغفروا له هل لكم أن تتصدقوا عن أبيكم.. وتجروا له الصدقات الدائمة.. نعم هذه الآن أموالكم.. وليست أموالي.. ولكن.. شفقة بأبيكم.. ورحمة به لما وجد في قبره إلى الآن.. ولما ينتظره.. بالله عليكم افعلوا لي شيئاً فإني أحوج ما أكون.. لأى شيء.. وكل شيء..

وصية ميت (٢)

(ميت) بتخفيف الياء.. لا تشديدها.. وذلك أنها بالياء المخففة بمعنى من مات بالياء المشددة بمعنى من سيموت.. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الزمر).

ـ زوجتي الحبيبة.. أعلم أني تركتكم ولم أورثكم مالاً كثيراً يجعلكم تعيشون كالأغنياء.. أعلم أنك كنت تريدين دائماً أن تكوني بمستوى صديقاتك ذوات الأموال.. ولكني لم أكن لأشتري الدنيا.. وأبيع الآخرة.. لم أكن لأشتغل بما يضرني عما ينفعني.. الآن وقد انتقلت إلى الدار الآخرة.. أحمد الله أنني لم أضيع صلاة واحدة منذ بلغت التكليف.. ولم أفوت صياماً.. وأحمد الله أني دائماً أسألك عن الصلاة.. وأوقظك للفجر.. رغم انزعاجك من هذا الأمر.. ولكن صدقيني.. إنها النور الذي طمئنني في الظلمات.

ـ زوجتي العزيزة.. لقد قضينا معاً.. أكثر من خمسين عاماً.. أحمد الله أنني أصطحبتك إلى الحج في العام الثاني من زواجنا.. وأظنني حججت معك ثلاث مرات.. ومع أصدقائي سبع مرات.. أتذكرين تلك العائلة التي لقيناها على الطريق.. وقد انقطعت بهم الأسباب في حر القيظ.. وقمنا بمساعدتهم حتى تمكنوا من مواصلة سيرهم رغم أن الأمر استغرق منا أكثر اليوم تحت لهيب الشمس.. وجدت أثر ذلك برداً وظلالاً.. أتذكرين كم كنت أداين أقرباءنا.. وأتنازل عن مطالبتي لهم بالدين.. وكنت تنزعجين من تصرفي هذا.. وجدت ذلك تهويناً ويسراً..

أريدك أن تري الأمور على حقيقتها.. وألا تنخدعي بزخارف الدنيا.. فإنها زيف.. بريق لا حقيقة له.. سراب لا ماء له.. هذه السنون الطويلة.. رأيتها تمر أمامي ومضات سريعة.. وأنا أعاني سكرات الموت.. ولكن وبعد أن وضعت في قبري.. وانتهت الأهوال الأولى.. من ضمة.. وظلمة.. شعرت بقبري يتسع.. والطمأنينة تتنزل.. وأظن أن بعض إخواني من الأصحاب أخلص الدعاء لي.. فنفعني اللّه بدعائهم وثبتني..

- أبنائي.. أحبائي.. اسمحوا لي.. أن لم أترك لكم أكثر مما تركت.. ولكن أحدنا لا يملك أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.. لقد كنت لكم خير أب لأبنائه.. أمرتكم بالصلاة.. وكم عانيت.. وصبرت.. لأجل أن أتأكد أنكم تحافظون عليها.. كنت لكم قدوة.. في صلاتي.. وصيامي.. وتخلقي بما أمرنا اللّه به.. لم أخن أمانة تربيتكم.. أعلم أن بعضكم تمرد علي.. وترك المنزل ضجراً من متابعتي إياكم.. ولكن لم أملك إلا ذلك حتى لا يحاسبني ربي.. ويعذبني لأجلكم.. أعلم أن الصالح فيكم أكثر بكثير من الفاسد.. ولكني بذلت جهدي.. وعلى قدر استطاعتي حاولت تربيتكم كما يرضى ربي..

والآن.. وقد فارقتكم.. ولم يكن للفراق من بد.. هل لي أن أطمح بدعائكم لي.. هل لي بطلب زيارتكم لي وأنا تحت التراب وأن تقفوا على قبري فتدعوا لي.. وتترحموا علي.. بصدق.. إني أحوج ما أكون لدعائكم لي.. واستغفاركم لي..

- واعلموا أيها الأبناء الأحباء.. أن من بركم لي أن تتصدقوا عني..

وكلما سنحت لكم فرصة اعملوا من الصالحات وثوبوها لي.. صدقات.. عمرة.. حجة.. صدقة جارية.. سقيا ماء.. بناء مسجد.. لقد كنت باراً بوالدي.. فأرجو أن تبروا بي بعد موتي أكثر من بركم بي في حياتي.. فإني مت وأنا راض عنكم جميعاً.. بل وإلى آخر يوم من حياتي.. وأنا أدعو الله لكم في سجودي أن يصلح لكم دينكم ودنياكم.. وأن يحفظكم.. فلا تنسوني من دعائكم.. ولا تهجروني بعدم زيارتكم لي.. أعلم أن مشاغل الحياة كثيرة.. ولكن صدقوني أن الدنيا كلها لا خير فيها.. إلا ذكر الله وما والاه.. لا خير في كثير من الأمور التي كنا نحرص عليها.. فلا تكونوا في شغل الدنيا.. وغفلة عن الآخرة..

الجنة خلقت لنا..

على غير العادة جلست مع مجموعة رواد المسجد الذين اتخذوا مجلساً في ساحة المسجد الخلفية، ذلك أن أحدهم دعاني للاستفسار عن بعض القضايا..

كنت سادسهم.. بدأ بو فهد الحديث...

ـ لم لا تقدم خطبة الجمعة بحيث تنتهي منها مع موعد أذان الظهر.. وذلك لحرارة الجو العالية.. كما يفعلون في مسجد (بن جراح) في منطقة الضاحية.

ـ ذاك المسجد له خصوصيته منذ عهد بعيد ولا نستطيع تطبيق ذلك في مسجدنا..

استمر هذا النقاش لبعض الوقت ثم تدخل (بومشعل) وغير الموضوع..

ـ دعني أسأل.. هل الجنة موجودة الآن؟

ـ نعم.. موجودة مخلوقة.. تنتظر أهلها..

ـ ومن أهلها؟

ـ الآن.. أم فيما بعد؟

ـ الآن.. وفيما بعد..

ـ أما الآن ففيها ملائكة والحور العين وأرواح الشهداء وبعض المؤمنين وربما آخرون الله أعلم بهم.. وأما فيما بعد فأنتم أهلها إن شاء الله.. مع جميع المؤمنين من أتباع الأنبياء وخاصة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم... فهم (ثلثا) أهل الجنة... تدخل (بو محمد).. وهو شخص كثير المزاح..

ـ تعني أن الجنة خلقت لـ (أبو سعود) و(أبو وليد).. و(بو عبد الله)؟!

ـ لم لا إن شاء الله سيكونون من أهل الجنة ولا نزكي على الله أحداً.. فنحن نعلم.. أنهم من أهل الصلاة.. لا تفوتهم فريضة في المسجد.. وهم من أهل الصيام.. وأعلم أنهم يخرجون زكاة أموالهم.. وكلهم أدى فريضة الحج.. وليس عندهم شيء من الشرك.. ولا النفاق إن شاء الله.. فلم لا يكونون من أهل الجنة بإذن الله..

ـ أراك تسهل الأمر.. هل تعني ما تقول أم تجامل؟

ـ ولِمَ أجامل؟.. إذا أدى المرء فرائض الله.. ولم يقع في الشرك أو النفاق الاعتقادي.. وانتهى عن المعاصي.. وإذا وقع منه ذنب تاب واستغفر.. فما المطلوب أكثر من ذلك ليكون من أهل الجنة بإذن الله..

ـ ولكن الأوصاف التي ذكرها الله في كتابه لأهل الجنة.. «صعبة»؟

ـ إني أخالفك الرأى.. اقرأ إن شئت في سورة (المؤمنون): ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ

حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾
ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾ (المؤمنون).. هؤلاء مكانهم الفردوس.. أعلى الجنة ألا يستطيع أحدنا أن يتصف بهذه الصفات ويسأل الله أن يرزقه الفردوس؟!

كان (بو عبد الله) صامتاً.. وهو قليل الكلام عموماً.. سألني..

ـ وهل نستطيع أن نقول أن فلانا في الجنة؟

ـ بالطبع لا.. لا يملك ذلك أحد.. والرسول صلى الله عليه وسلم عندما أخبر عن أفراد بأعينهم أنهم في الجنة إنما ذلك بوحي الله.. وإلا فليس لأحد أن يحكم لأحد بالجنة أو النار.. ولكن نقول إن الله ذكر لأهل الجنة صفات وأخلاقاً وأفعالاً يستطيع كل منا أن ينالها.. وعلى الأقل أن يسعى ليكون ضمن من ذكرهم الله عز وجل.. فالجنة لم تخلق إلا لنا نحن عباد الله.. وخاصة من أمة محمد صلى الله عليه وسلم.. فما علينا إلا أن نعمل لأجل أن ندخلها وندعو الله أن نكون من أهلها.. فالجنة خلقت لنا..

الجنة موجودة وكذلك النار!

ـ لو تتبعنا الأدلة لوصلنا إلى قناعة أن الجنة موجودة وكذلك النار.. ومن هذه الأدلة أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي منها أنه «**دخل الجنة...**» (صحيح ابن حبان) وأنه في صلاة الاستسقاء «**تقدم ثم تأخر.. عرضت عليه الجنة.. ثم النار**» وأنه رأى من أنواع النعيم في الجنة.. ورأى من أنواع العذاب في النار.. والحديث «**أن زوجة المؤمن من الحور العين إذا آذته زوجته قالت الحورية إنما هو ضيف عندك وقريبا يتركك ويأتينا**» (السلسلة الصحيحة) وكذلك «**أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة تسرح حيث تشاء وأن الروح إذا خرجت**». (متفق عليه) كانت أرواح المؤمنين في عليين وأرواح الكفار والمنافقين في سجين.. والأدلة في ذلك تطول فيطمئن المؤمن إلى أن الجنة مخلوقة موجودة الآن وأن النار موجودة الآن أيضاً..

كنت وصاحبي في حديث بين العشاءين ننتظر الأذان.

ـ وهل ذكرت الأدلة مكان الجنة والنار؟

ـ أما الجنة فقال تعالى في سورة النجم:﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ ﴾ (النجم).

وذلك عندما عُرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء... وتوقف جبريل (عليه السلام) عند سدرة المنتهى وتقدم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم بعد أن أذن الله دخل جبريل مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم الجنة ورأى من نعيمها (مسلم).. فهي في السموات العلا.. فوق سبع سموات.. والنار والعياذ بالله في سجين.. تحت سبع أراضيين.. وتذكرت الآن حديثاً.. وذلك عندما كان صلى الله عليه وسلم جالساً مع أصحابه فسمعوا صوتاً.. لم يسمعوا مثله قبله.. فأخبرهم صلى الله عليه وسلم.. أنه حجر ألقي في النار منذ سبعين سنة بلغ قعرها للتو!!! (السلسلة الصحيحة) فهي موجودة تنتظر يوم القيامة.. وكذلك حديث النبي صلى الله عليه وسلم.. عن شدة البرد وشدة الحر.. أنه نفس لجهنم.. (البخاري) وذلك أن من العذاب شدة البرودة الحارقة.. كما شدة الحرارة الحارقة..

- وماذا عن تفصيل وصفها يوم القيامة؟!

- يوم القيامة يُؤتى بالنار.. «**تجرها ملائكة.. لها سبعون ألف زمام.. على كل زمام سبعون ألف ملك**».. (مسلم) يجرونها جهة المحشر.. تخرج منها ألسنة تلتقط بعض الناس من المحشر كما يلتقط الطير الحب.. أما المؤمنون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ١٠١ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ١٠٢﴾ (الأنبياء). وبعد أن توضع في المكان الذي يريده الله لها.. ينصب الصراط على جهنم.. «**وعلى جنبتي الصراط.. الأمانة والرحم**» (صحيح مسلم).. تحفظ من أداهما.. وكذلك كلاليب كشوك السعدان.. تخطف من أمرت به.. فتلقيه في النار.. والجميع يمر على جهنم.. في الطريق إلى الجنة أو للرمي في العذاب.. ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢﴾ (مريم).

دخل المؤذن قبل موعد العشاء بدقائق وقف يستمع حديثنا دون أن يجلس ينتظر موعد الأذان..

- والإيمان بأن الجنة موجودة.. ونعيمها حاضر.. وكذلك النار.. وعذابها.. يدفع المؤمن للسعي إلى أن يعمل لأجل الجنة.. فما هي إلا لحظات الموت وينتقل إلى هذا النعيم.. ففي القبر.. يفتح له باب إلى الجنة.. يأتيه من روحها ونعيمها.. ويرى مقعده في الجنة.. وكذلك الكافر يفتح له باب إلى جهنم يأتيه من عذابها ولهيبها.. نسأل الله العافية.

الجنة.. بلا حساب ولا عذاب

بعد صلاة الجمعة في مسجد (أبي حنيفة) في دولة الإمارات، حيث كنا في زيارة قصيرة ليومين.. وكان حديث الخطيب عن الجنة ونعيمها. أهلها.. خيامها.. إلخ.

ـ ومن أين لنا أن ندخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.. ونحن على ما نحن عليه؟!

ـ ولِمَ القنوط من ذلك.. فإن الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب جم غفير..

ـ كيف ذلك؟! أليسوا سبعين ألفاً فقط كما في حديث عكاشة بن محصن؟

ـ كلا.. بل في الروايات الصحيحة «أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم رأى سواداً عظيماً ليلة المعراج يدخلون الجنة، فقال لجبرائيل ـ عليه السلام: هؤلاء أمتي؟ قال: لا.. هؤلاء أمة موسى.. ولكن انظر إلى الأفق.. يقول صلى اللّه عليه وسلم: فإذا سواد أعظم.. فقال: هؤلاء أمتك.. يتقدمهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب..» وفي رواية أخرى: «**ومع كل ألف سبعون ألفاً.. وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل**» (متفق عليه).. كل هؤلاء يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب..

استغرب صاحبي..

ـ وهل هذه الروايات ثابتة؟!

- نعم.. وفضل الله عظيم فلا ينبغي لمؤمن أن يقنط من دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب.. فيمتنع عن دعاء ربه لنيل هذا الثواب العظيم..

- وهـؤلاء الذين جاء وصفهم بأنهم: «**لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون**» (متفق عليه).

- نعم.. وطبعاً مع انتفاء الموانع كما هو معلوم من القواعد العامة في الثواب التام الذي يكون مع العمل التام.. (كمال الأجر مع كمال العمل)..

- بصراحة.. كنت قد توقفت منذ مدة بعيدة عن أن أسأل الله الجنة بلا حساب ولا عذاب.. وكنت أقول في نفسي: أين أنا من هذا الثواب العظيم؟ هذا للقرون الأولى.. أما نحن وبعد أربعة عشر قرناً من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم.. ففينا من القصور ما لا نستحق معه أن ندخل الجنة بلا حساب.. ربما بلا عذاب ممكن أما بلا حساب، فهذا الذي كنت استبعده عن نفسي.. استوقفنا سيارة أجرة للذهاب إلى نزلنا.. تابعنا الحديث بعد أن استوينا في المركبة..

- إن الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب لا زمان محدد لهم.. وإنما صفات معينة لهم.. فالمرء يحث نفسه.. ويجتهد في العمل القلبي والبدني.. ليكون منهم ويدعو الله بذلك.. ويحسن الظن بالله..

- وماذا عن قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «**وثلاث حثيات من حثيات ربي**»؟ (أحمد وابن ماجه صححه الألباني).

ـ هذا من باب صفات الرب عز وجل التي نثبتها ونؤمن بها للّه عز وجل ونقول بها .. ونوقن أن اللّه سيدخل الجنة ثلاث حثيات من حثياته الجنة بلا حساب ولا عذاب.. والحثية لغة.. هي ما يأخذه المرء بيديه ـ عادة من التراب ـ والحثي معلوم.. ولكن حثيات الرب عز وجل تليق به وليست كحثيات المخلوقين.. فنثبت للّه اليدين كما جاء في الآيات والأحاديث الصحيحة.. ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ٧٥﴾ (ص) يدان تليقان بجلاله سبحانه لا كأيدي المخلوقين ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ (الشورى) وأن اللّه سبحانه سيحثو ثلاث حثيات من أمة محمد يدخلهم الجنة مع السبعين ألفاً .. دون حساب ولا عذاب..

ـ الآن جعلتني أشعر أنني من الممكن أن أكون معهم..

ـ اللهم آمين.. ولكن بالعمل.. والعقيدة.. والدعاء.. ليس بالتمني والرجاء فحسب.

القدر.. بأسلوب سهل

بعد انقطاع قرابة الشهر إلتأم شملنا في منزل الوالدة.. لم أكن أول الحاضرين ولا آخرهم.. استغل ابن أختي عبدالله انشغال الآخرين ليوجه إلي سؤالاً..

- هلا شرحت لي مسألة القدر.. أشعر أن لدي حلقة ناقصة..

- لك ذلك.. دعني أبين لك الأمر بنقاط..

أولاً: نؤمن بأن الله يعلم كل شيء ما كان وما يكون وما سيكون.. ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة.. أحاط بمخلوقاته كلها.. منازل المطر.. ومنابت الشجر.. فهذا علم الله وهي صفة من صفاته العليا سبحانه.. ومن أسمائه (العليم) فهو علم مطلق.. وكتب الله علمه قبل خلق السموات والأرض بخمسمئة عام نؤمن بذلك.

ثانياً: الإنسان له إرادة يتصرف من خلالها.. ويحاسب عليها.. وما يفعله الإنسان يسجل عليه في كتاب يجمع ثم يبسط له يوم القيامة ليقرأه.. وينال جزاءه عليه..

ثالثاً: هناك أمور تقع على الإنسان دون إرادته.. يوم مولده.. لون بشرته.. مرضه دون سبب معلوم.. موت أقربائه.. وهذه الأمور لا يحاسب عليها الإنسان يوم القيامة وحتى يستطيع أن يستمر في الحياة ويخفف من وطأة المصائب عليه يؤمن بأن الله كتبها ولا خيار له إلا أن يصبر ويرضى بقضاء الله.. لأن هذا من الإيمان.

رابعاً: وهذه النقطة هي التي يدخل من خلالها الشيطان إلى قلب الإنسان.. وهي أن الله لم يكتب على الإنسان ارتكاب المعصية ولم يأمره بها.. ولكنه علم أن هذا العبد سيقع في هذه المعصية.. وذلك أن علمه تام وكامل سبحانه وتعالى.. فليس للإنسان أن يحتج بالقدر على ارتكاب المعاصي.. ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف).. فهل يقبل أحد أن يقول: «أمرني الله بشرب الخمر».. أو «أمرني الله بقتل هذا».. أو «لم يأمرني الله بالصلاة».. لا يقول ذلك عاقل.. وهذه الحجة الواهية قالها المشركون من قبل.. ولكن الله رد عليهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ (الأنعام).

وقال الله عز وجل: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (الأعراف)..

فنستطيع أن نقول: إن الإيمان بالقدر يتمثل في أمرين:

الأول: الإيمان بأن علم الله محيط بكل شيء..

الثاني: أن العبد لا يحاسب على ما يقع عليه دون إرادته.. ويجازى على ما يفعله بإرادته.. ولكل عبد إرادة تمكنه من فعل الطاعات أو السيئات..

فالقدر ذكر لنا ليزيد إيماننا ويعيننا على طاعة الله لا لنبرر لأنفسنا الوقوع في المعاصي وارتكاب الفواحش..

كان الجميع منصتاً.. متجاوباً مع الشرح.. سأل (بو فيصل)..

ـ وماذا لو أنكر أحدهم القدر.. وذلك لإيمانه بأن لكل شيء سبباً ولا يمكن أن ترجع الأمر إلى القضاء والقدر؟!

ـ هذا هو النقيض الآخر.. من أنكر القدر فقد ترك ركناً من أركان الإيمان.. المؤمن يؤمن بالقضاء والقدر ويستعين بهذا الإيمان ليعيش عيشة هنيئة مقتنعاً بما يجري عليه مما لا إرادة له فيه.. ويعلم أنه محاسب أمام الله على كل عمل.. بل كل لفظ يصدر منه.. والحساب شديد وتفصيلي.. وبعد الحساب جزاء.. إما نعيم أو عذاب.. هذه هي الحقائق.. وغير هذا ظن ووسواس من الشيطان لا قيمة له..

لو علمنا الغيب

كنا في الطريق من مدينة إلى أخرى تبعد مئتي كيلو متر لزيارة شخص قدم إلى هذه البلاد للعلاج..

قضايا العقيدة من الأمور التي يهتم بها ابني معاذ.. وكثيراً ما يناقشني في مفاهيم دقيقة، لا سيما في مسألة القدر.. بدأ الحديث..

– وأريدك أن تسمع هذه القصيدة..

وضع القرص المدمج في المكان المعد له.. وضغط زر التحكم.. كانت القصيدة من الشعر النبطي.. من أبياتها.

لو علمنا الغيب جنبنا المشكلات..

أوقف الجهاز.. سألني..

ـ لو علم الإنسان الغيب.. هل يختار أو يغير شيئاً مما حصل له؟!

ـ هل تريد أن نبدأ لـ (لو).. أم بالفكرة عموماً؟!

ـ لنبدأ بالفكرة عموماً..

ـ الغيب هو كل ما غاب عن الإنسان.. والغيب المطلق لا يعلمه إلا الله عز وجل.. والغيب المطلق هو ما غاب عن جميع المخلوقات ولم يطلع الله عليه أحداً.. فمن الغيب المطلق.. علم الساعة.. ومن الغيب ما كتبه الله لكل أحد وهو في رحم أمه.. فهذا غيب للإنسان.. ولكن أطلع الله عليه الملك.. الذي أمره بنفخ الروح.. فقد علم جنسه ومآله وسعادته أو شقاءه.. وقبل أن يطلع الله الملك على هذه الأمور لم يكن يعلمها..

وأعمال العباد المستقبلية غيب على العباد.. وعلى الملكين اللذين يكتبان الخير والشر.. ولذلك جاء في الحديث إذا أقدم العبد على عمل فإن الملك لا يكتب حتى يعمل العبد.. إن كانت طاعة كتبت له عشر حسنات.. (صحيح الجامع) وإن كانت مخالفة كتبت سيئة واحدة.. ولكن بعد أن يعملها العبد.. وإن امتنع عن ارتكاب السيئة كتبت له حسنة..

قاطعني..

ـ معظم ذلك أعرفه.. ولكن ماذا لو علم الإنسان الغيب؟! هل يختار خلاف ما اختاره اللّه له؟ بالطبع إذا كان له خيار!

ـ يظن كثير من الناس أن الإطلاع على الغيب يمكنهم من تجنب المشكلات.. والمتاعب.. وهذا مفهوم لا أقول أنه غير صحيح.. وإنما قاصر.. وذلك لأن الحياة الدنيا لابد فيها من اختبارات.. بالخير والشر.. والنجاح في هذه الاختبارات هو تطبيق ما يرضي اللّه.. والفشل هو الوقوع فيما حرم اللّه.. بغض النظر عن المردود الآني للإنسان.. من راحة ونعيم أو تعب وجحيم.. فلو اطلع الإنسان على الغيب ـ مثلاً ـ وعلم أن في سفره سيحصل له حادث يؤدي إلى وفاته.. فيختار ألا يسافر.. فإذا بقي في بلده ولم يسافر هل يعلم نتيجة بقائه؟! بمعنى هل بقاؤه وعدم سفره سيضمن له عدم الموت؟! فمن كمال علم اللّه عز وجل أنه يعلم لو أن الأمر الذي لم يكن لو كان كيف يكون.. وهذه درجة من الغيب لا يعلمها أحد إلا اللّه.. ومن يطلعه عليه سبحانه..

استفسر.. يريد مزيد إيضاح..

ـ لنأخذ مثالاً آخر.. عدا مسألة الموت.. مثلاً.. لو علم أحدنا أنه إذا دخل في صفقة ما فإنه سيخسر كل ماله.. فإنه يتجنب الدخول في هذه الصفقة.. ولو علم الغيب بأنه إذا دخل في صفقة ما سيضاعف أرباحه.. فإنه يقدم على هذه الصفقة؟!

ـ وبعد.. الإقدام.. أو الإحجام.. عن الصفقة؟! أعني ما الخطوة التالية.. المترتبة على الربح أو الخسارة..

ـ هكذا يستطيع المرء أن يجتنب العثرات في دراسته.. وزواجه.. وتجارته.. وذريته.. وعلاقاته..

ـ هذه ليست الحياة الدنيا.. هذا لا يكون إلا في الجنة.. نعيم لا كدر فيه.. أما الحياة الدنيا.. تعريفاً.. هي دار اختبار.. وكل شيء يجب أن ينطلق من هذا التعريف.. بل هي دار شقاء.. وصفها الرسول صلى الله عليه وسلم بأنها «**سجن المؤمن وجنة الكافر**» (مسلم) ووصف الأنبياء «**بأنهم أكثر الناس بلاءً**» (البخاري) ومن زاد إيمانه زاد بلاؤه.

ـ المحصلة النهائية أن الله يختبرنا بأوامره.. ولم يختبرنا بالغيب.. أمرنا بطاعات.. ونهانا عن محرمات.. فلا ينبغي أن نشغل أنفسنا عما أمرنا الله به.. بما لم يأمرنا به.. ولكن نؤمن بالغيب لأمرين.. أولاً أنه علم الله.. وهذا من صفاته عز وجل.. وثانياً: لنتمكن من الاستمرار في الحياة.. فإن ما أصابك لم يكن ليخطئك.. وما أخطأك لم يكن ليصيبك.. ونرتاح بذلك..

ومن لا يحب آل البيت؟!

آل بيت النبي صلى اللّٰه عليه وسلم هم آل علي آل جعفر آل عقيل، آل عباس.. علي بن أبي طالب.. ابن عم رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم وربيبه وزوج ريحانته... ووالد «الحسن» و«الحسين».. رضي اللّٰه عنهما.. مات شهيداً يوم الجمعة السابع عشر من رمضان جعفر بن أبي طالب، ابن عم النبي صلى اللّٰه عليه وسلم هاجر إلى الحبشة ورجع إلى المدينة في فتح خيبر.. ثم قاد جيوش المسلمين واستشهد في مؤتة وقطعت يداه فأخبر الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم بأنه في الجنة يطير بجناحين.. «جعفر الطيار»..

عقيل بن أبي طالب.. ابن عم النبي صلى اللّٰه عليه وسلم.. وكان ابنه «مسلم» مبعوث «الحسين» فغدر به أهل الكوفة بعد أن دعوه للقدوم عليهم وقتل شهيداً يوم عرفة العباس بن عبد المطلب.. عم النبي صلى اللّٰه عليه وسلم.. وابنه عبداللّٰه بن عباس حبر هذه الأمة.. وكان عمر ابن الخطاب يدعوه ليصلي بهم صلاة الاستسقاء بعد وفاة النبي صلى اللّٰه عليه وسلم.. وكان عبد اللّٰه بن عباس في مكة عندما خرج منها «الحسين» إلى الكوفة.. وقال له: «لولا أن يعيبني ويعيرني بك الناس لتشبثت بك من رأسك فلم أتركك تذهب إلى الكوفة.

وآل البيت حرمت عليهم الصدقة.. ويأخذون من الفيء الذي يقسمه اللّٰه لرسوله صلى اللّٰه عليه وسلم.. وهم الذين نذكرهم في كل صلاة على رسولنا صلى اللّٰه عليه وسلم «اللهم صلي على محمد وآل محمد».

كنت أجيب صاحبي بعد صلاة الجمعة تعرض فيها خطيبنا للمواقف المشرفة بين آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأنهم جميعاً كانوا على محبة ووفاق.. وسألني صاحبي..

- وما قرابة «أبي لهب» للنبي صلى الله عليه وسلم؟

- هو عمه.. أخو والده.. ومع ذلك لعنه الله لكفره.. وأنزل فيه قرآن يتلى إلى يوم القيامة.. فالقرابة وحدها لا تكفي.. بل لابد من الإيمان والموالاة..

- وهل تعلم من الذي يروي حديث سيدات نساء أهل الجنة؟

- كلا..

- عائشة رضي الله عنها.. وهي أيضاً تروي حديث الكساء رضي الله عنها في صحيح مسلم.. وهي التي قالت لفاطمة رضي الله عنها: «**ألا أبشرك يا فاطمة.. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول سيدات نساء أهل الجنة مريم وآسيا وخديجة وفاطمة**» (صحيح على شرط الشيخين) وهل تعلم من الذي مرَّض فاطمة الزهراء في مرض موتها؟!

أسماء بنت عميس زوجة أبي بكر الصديق.. ثم تزوجها بعد وفاته علي ابن أبي طالب وأنجبت له يحيى بن علي..

كان صاحبي يستمع وكأنه يتعلم شيئاً جديداً غريباً.

- وهل تعلم من كان على باب عثمان بن عفان يدافع عنه يوم حاصره الغوغاء من أهل العراق ومصر؟!

ـ من؟

ـ الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب.. وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) سمَّى ابناً له.. «أبو بكر».. وآخر «عثمان».. والحسين سمى ابنه «أبو بكر» ومحمد بن أبي بكر تربى عند علي ابن أبي طالب وعلي بن أبي طالب زوج ابنته أم كلثوم بنت علي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه.. وجعفر الصادق قال.. «ولدني أبو بكر مرتين» فأمه هي فروة بنت القاسم بن محمد ابن أبي بكر.. وجدته هي حفيدة أبي بكر الصديق وهل تعلم أن علي بن أبي طالب سمى ابناً آخر له «عمر»؟ وكذلك الحسن سمى ابنه «عمر»..

رد علي مستغرباً..

ـ هذه معلومات اسمعها للمرة الأولى..

ـ دعني أقسم لك أنه لم يكن بين الصحابة وآل البيت إلا الحب والموالاة.. كيف والرسول صلى الله عليه وسلم أوصاهم بآل بيته وأبو بكر يقول (ارقبوا محمداً في آل بيته).. والله يأمرنا أن نصل عليهم كلما ذكرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن حبهم دين.. وكما قال علي رضي الله.. «هلك فينا اثنان.. محب غال.. ومبغض قال» وذكر الشيخ محمد بن عبد الوهاب.. رحمه الله تعالى:

«لآل البيت على الأمة حق لا يشركهم فيه غيرهم ويستحقون من زيادة المحبة والموالاة ما لا يستحق سائر الناس»..

وينقل القمي في «نفس المهموم» ص٣٦٥.. عن زينب بنت علي «رضي الله عنها»: «بعد أن حصل ما حصل: «يا أهل الكوفة تقتلنا رجالكم وتبكينا نساؤكم» وفي منتهى الآمال ١/٥٧٠ يقول زين العابدين علي بن الحسين بن علي.. لأهل الكوفة: «تنوحون علينا وتبكون من أجلنا.. فمن الذي قتلنا».

اللهم اجمعنا بآل بيت نبيك وصحابته وارزقنا النظر إليهم في الجنة.

أمير المؤمنين أبو الحسن رضي الله عنه

السؤال الذي يطرحه عليّ جاري دائماً..

- كيف تقدِّم أبا بكر وعمر على علي (عليه السلام)؟!

وأجيبه دائماً..

- أنا لا أقدم أحداً على أحد، بل الله هو الذي ينزل الناس منازلهم، ونحن لا نستطيع أن نرفع من شأن أحد ولا ننزل من قدر آخر.. فمدحنا لعلي لا يزيده.. وذمنا لأبي بكر لا ينقصه، هؤلاء رجال أكبر من أن تتأثر منازلهم بما نقول أو نعتقد.. عقائدنا وأقوالنا في هؤلاء تنفعنا نحن وتضرنا نحن.

- وماذا تقول في علي - عليه السلام؟ - «أبو الحسن».. وأحب إليه أن ينادى بأبي تراب؟

سألته:

- هل تدري لماذا كان يحب أن ينادى بأبي تراب؟

- كلا.

- في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زار ابنته وريحانته فاطمة الزهراء - عليها السلام - فلم يجد ابن عمه. فسألها، فقالت: غاضبني وخرج.. فذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فوجده مضطجعاً وقد إلتصق التراب بخده، فقال له: «**قم أبا تراب.. قم أبا تراب**» فكان من أحب الكُنى إليه. (متفق عليه).

لنرجع إلى حديثنا.

- علي بن أبي طالب.. تربى في خير بيت، بيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وخديجة بنت خويلد فكان رجلاً اكتسب كل مفاخر الرجال، وأعطاه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثلاثا: الراية يوم خيبر وفتح اللّه عليه، ومكانة هارون - دون النبوة - في تبوك، والولاية يوم غدير خم.

ابتسم صاحبي..

- حدثني عن هذه.. الثالثة.

- بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم علياً إلى اليمن بعد خالد بن الوليد، فأسلم أهل همدان، ورأى بعض الصحابة أخطاء - في ظنهم - على علي، فلما رجعت السرية اشتكى أربعة من الصحابة عَليّاً والرسول صلى اللّه عليه وسلم يعرض عن كل واحد منهم، حتى ظهر عليه الغضب، فقال: «**ما تريدون من علي؟ إن عليا مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي**» (السلسلة الصحيحة) ثم في غدير خم بعد حجة الوداع، قال صلى اللّه عليه وسلم: «**من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه**» (السلسلة الصحيحة) وفي ذلك تأكيد لمكانة علي بين الصحابة ولم يفهم علي - عليه السلام - ولا أحد من الصحابة أن هذه الكلمة وصية بخلافة علي من بعده، وإلا ما سكتوا، بل وما سكت علي، كما قال الحسن المثنى السبط: واللّه لو كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عهد إليه في ذلك ثم تركه كان أعظم خطيئة.

ومن الذي يجرؤ أن يعطيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أمراً

عظيماً كأمر الولاية والخلافة، ثم لا يموت دون أن يحقق أمر رسول اللّه، فمن كان يرضاها لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب فإننا لا نرضاها له.. بل ونؤمن يقينا بأنه أسمى من أن يخالف أمراً لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وإن كان في ذلك مقتله.

- وماذا عن الأمور الأخرى؟!

- لا أدري ما تعني بالأمور الأخرى ولكن إمامنا علي - عليه السلام كان شجاعاً قوياً لا يهاب أحداً، ولا يقبل الهوان لدين اللّه ولا لأهل بيته، وكان يحب عمر بن الخطاب، فزوجه ابنته «أم كلثوم» وأنجب عمر منها زيداً ورقية، وعمر الأصغر وأبو بكر من ليلى بنت مسعود الدارمية، واستشهد عمر الأكبر مع أخيه الحسين يوم عاشوراء.

ولا شك أن كل ما يُنسب إلى علي - عليه السلام - من تصرفات تخالف الرجولة والشهامة والغيرة على الأهل، كلها محض افتراء، فما كان ليرضى أن يؤذي أحد زوجته فاطمة الزهراء بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فضلاً عن أن يسقط جنينها ويحرق باب بيتها.. علي بن أبي طالب أكبر من أن يُنسب إليه ذلك.

العشر الأول من محرم

صادف اجتماعنا ـ نصف الشهري ـ للعائلة يوم الرابع من محرم.. قبل اكتمال الجمع.. وقبل انفصال النساء والأطفال عن الرجال.. سألتني أختي (وأسميها الدرويشة) عن فضل العشر الأول من محرم:

ـ منذ بداية محرم وأنا أصوم كل يوم. كما فعلت في أوائل ذي الحجة.

ـ أوائل ذي الحجة فيها حديث صحيح.. عن ابن عباس، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام، يعني العشر الأول من ذي الحجة، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء**» (صحيح أبو داود وابن ماجه).

ـ قلت لعل هذه مثل تلك..

ـ ألا تعلمين أن الأصل في العبادات التحريم إلا ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.. بمعنى أنه لا يجوز لك أن تصومي وتصلي وتذكري الله.. دون أن تعلمي أن عملك هذا ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وكل عمل ـ من العبادات ـ تعملينه بحسن نية.. تريدين الأجر والثواب ولم يكن على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مردود عليك.. وربما يكون وزراً لا أجراً.. استاءت وأظهرت ذلك بحركات وجهها..

تابعت الحديث:

ـ ولكن لك أن تتقربي إلى اللّٰه بهذه الطاعات ـ الصيام وغيره ـ لأن شهر محرم من الأشهر الحرم.. وكذلك ثبت عن رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم الدعوة لصيام التاسع والعاشر (تاسوعاء وعاشوراء) خصوصاً.. أما الاعتقاد أن أوائل محرم كأوائل ذي الحجة فهذا خطأ؛ لأنه لا مثيل لأوائل ذي الحجة من الأيام ولا لأواخر رمضان من الليالي.

دخلت شقيقتي الصغرى.. وكانت تشتكي من مرض في الأعصاب يحتاج إلى عملية فيها خطورة.:

ـ أرشدتني صديقتي في الجامعة.. إلى أن أنذر لقبر العباس ولا سيما هذه الأيام وأن أدعو اللّٰه؛ فإن ذلك يسهل من أمر العملية ويأتي الشفاء بإذن اللّٰه.

قلت لها:

ـ ولماذا لا تنذرين لقبر النبي صلى اللّٰه عليه وسلم فإنه أولى من العباس.. تقولين: «يا رسول اللّٰه لك نذر عليَّ أن أزورك إن شفاني اللّٰه».. بدل أن تقولي: «يا سيدي يا عباس لك عليَّ نذر أن أزورك وأتصدق عند قبرك إذا شفاني اللّٰه»؟! لم تجبني.. تابعت حديثي:

ـ وعلى أية حال.. لا يجوز أن تنذري لقبر الرسول صلى اللّٰه عليه وسلم فضلاً عن غيره من الأئمة والسادة والشيوخ.. بل النذر للّٰه وحده.. والدعاء للّٰه وحده.. ولا تحتاجين واسطة بينك وبين اللّٰه.. ولا يريد اللّٰه

منا أن نجعل بيننا وبينه واسطة.. بل نتوجه إليه مباشرة ندعوه بما شرع.. ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ (الأعراف).. دون وساطات ولا حتى ملائكة ولا أنبياء وهم بلا شك أفضل من الأئمة.. ولنرجع إلى صيامك يا «درويشة».. لقد تذكرت حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل**» (صحيح مسلم)، ولكنها بلا شك ليست كأول أيام ذي الحجة في العمل الصالح.

ـ وماذا ينبغي أن نفعل في هذا الشهر الحرام؟

ـ كما قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ﴾ (التوبة)، فالمؤمن في هذا الشهر الحرام يتقرب إلى الله بما شرع.. ولا يبتدع في دينه ما ليس منه.. ولا يجتهد في عبادات لم يأذن بها الله عز وجل؛ لأن البدعة لا تزيد المرء إلا بعداً عن الله.

لا تحسبوه شراً لكم..

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ (ص).

حقاً لو تدبر أحدنا ما يقرأ من آيات القرآن لكفته في الدنيا والآخرة.. كنت أستمع إلى إمامنا وهو يقرأ في صلاة العشاء آيات الإفك من سورة النور.. وكلنا يعرف قصة الإفك التي افتراها المنافقون على أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - ولكن استمع إلى قول الله في بداية هذه الآيات.. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (النور).. ثم تخيل الموقف.. زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم تتهم في عرضها.. وينتشر الكلام في المدينة كلها.. ولا يحسم.. لأكثر من شهر كامل.. (كيف لا يكون هذا شراً؟).. بكل المعايير البشرية.. إنه أشد الشر.. وأعظم فتنة.. رسولنا صلى الله عليه وسلم تتهم زوجته.. أم المؤمنين.. ويشاء الله تعالى أن تمرض طوال هذه الفترة.. حتى أخذت الفتنة مداها.. وتحدث بعض الصحابة لا المنافقون فحسب!! (كيف لا تكون شراً؟) ولكن اصبر.. ولا تتعجل.. ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (هود).

- بل كان الموقف عصيباً على جميع المؤمنين.. وحتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم.. استبطأ الوحي.. فلبث شهراً لا يوحى إليه.. واستشار بعض أصحابه في طلاق عائشة.. بل وسأل جاريتها بريرة (أي

بريرة.. هل رأيت شيئاً يريبك من عائشة؟).. هكذا اجتمعت الظروف كلها لتحكم حلقاتها في هذه المصيبة.. (فأي خير فيها؟)..

كنا خمسة.. اثنان ضيوف.. واثنان من «حمائم» المسجد.. بين المغرب والعشاء..

تابع (بو مشاري) الحديث.. معقباً على الكلام..

- فتاة صغيرة.. جارية حديثة السن.. لم تتجاوز السادسة عشرة.. ولكنها زوجة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.. وكانت لها مكانتها عند المؤمنين.. ولذلك روي أن خالد بن زيد الأنصاري (أبا أيوب) قالت له امرأته: يا أبا أيوب.. أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟! قال: نعم.. وذلك الكذب.. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا واللّه ما كنت لأفعله.. قال: فعائشة واللّه خير منك..

هكذا كان موقف معظم الصحابة - رضي اللّه عنهم.

سأل أحد الضيوف - ويبدو أنه لم يكن يعلم عن حادثة الإفك شيئاً.. وكيف تمت براءة عائشة - رضي اللّه عنها؟

لقد أنزل اللّه ببراءتها عشر آيات تتلى إلى يوم القيامة.. حتى عائشة نفسها لم تكن تظن أن اللّه سيبرئها بآيات ينزل بها جبريل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.. كانت تعتقد أن الرسول صلى اللّه عليه وسلم سيرى رؤيا في منامه.. أو شيئاً من هذا القبيل.. ولكن أن تنزل آيات من السماء.. فأكرمها اللّه بالقرآن يتلى.. - هذا دون شك خير عظيم لها..

ولآل أبي بكر جميعاً .. وللمؤمنين جميعاً وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١١﴾﴾ (النور) وهذا من أعظم الخير لعائشة ـ رضي الله عنها ـ فإنها بهذه الآيات حفظها الله من ألسنة الزنادقة والمغرضين الذين رغم هذه الآيات المطهرات الباقيات إلى يوم القيامة يتحدثون عنها بسوء.. وما ذاك إلا لمرض قلوبهم.. أما الصحابة،.. وآل البيت فيعلمون لعائشة مكانتها.. فها هو عبد الله بن العباس.. ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحبر هذه الأمة.. يأتي عائشة في مرض موتها يقول لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وكان يحبك ولم يتزوج بكراً غيرك ونزلت براءتك من فوق سبع سموات..

ـ سبحان الله.. ابن آدم عجول.. وابن آدم ظلوم وجهول.. ولكن المؤمن إذا اتقى الله وصدق مع الله فإنه مع شيء من الصبر يعلم أن العاقبة له.. كما حصل مع نبي الله يوسف ـ عليه السلام ـ رمي في البئر.. وسجن.. سنين.. ثم أصبح بعد ذلك حاكماً يرد عليه إخوته الذين أرادوا قتله.. بل رسول الله صلى الله عليه وسلم.. يعذب.. ويهان ثلاثة عشرة سنة.. ثم يرجع بعد ذلك بعشر سنين ليقف منتصراً أمام من آذوه.. وطردوه.. وكذبوه.. إنها سنة الله في خلقه.. ولكن المؤمن يحتاج إلى (الذكرى.. والصبر).. ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ (النور: ١١).

وإلى ربك فارغب

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان وطعمه: أن يكون الله عز وجل ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب في الله ويبغض في الله، وأن توقد نار عظيمة فيقع فيها أحب إليه من أن يشرك بالله شيئاً» (متفق عليه).

بعد صلاة المغرب.. وكان الإمام قرأ في الركعتين «الضحى» و«الانشراح» سألني صاحبي:

ـ ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾ (الانشراح).. فيها إشارة إلى «علاقة» العبد بربه.. صاحبي بروفيسور في علم الاجتماع.

ـ نعم.. هي كذلك.. دعوة من الله عز وجل لعباده.. من خلال رسول البشر أجمعين محمد صلى الله عليه وسلم أن يرغبوا إلى الله.

ـ انظر.. معنى «الرغبة».. ضد «الزهد».. «رغب»: أي حرص على الشيء وطمع فيه.. وتأتي مع «في».. و«إلى».. مع الثانية:

ابتهل.. وضرع.. وطلب، ومع الأولى «التنافس للانفراد بالشيء».. و«الرغبة إلى الله».. الدعاء.

أذهلني.. اتساع اطلاعه.

ـ لقد وردت مشتقة «الرغبة» في القرآن.. لوصف حالة الأنبياء في دعائهم الله عز وجل: ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ (الأنبياء).. فالمؤمن يدعو

الله رغبة فيما عنده من الخير.. وخوفاً مما قد يصيبه من العذاب.. فهلا تدبر المرء هذه الآية.. والآيات المماثلة.. التي تدعو العبد أن يلجأ إلى الله وحده.. لا لأحد معه.. اسمع قول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر).. وأعد لعباده ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.. ورحمته تسبق عذابه.. وخلاصة ما أمر عباده أن يفعلوا: أن يوحدوه فلا يشركوا به شيئاً.. «**حق الله على العباد.. أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئاً**» (متفق عليه).. يريد لهم الخير.. يريد أن يتوب عليهم.. ويحب ذلك.. يريد أن يغفر لهم.. يريد أن يخفف عنهم.. فلم يشرع لهم شيئاً إلا رحمة بهم.. ورفقاً بهم.. لم يكلفهم ما لا يطيقون، ولم يأمرهم بما لا يستطيعون.. بل كل ما شرعه لهم.. فيه خيرهم.. في الدنيا والآخرة.. يريد لهم الحياة الطيبة في الدنيا.. والأمان والطمأنينة في البرزخ.. والنعيم المقيم في الآخرة.. رب رحيم.. ألا ينبغي أن «نرغب إليه».. ندعوه رغبة فيما عنده.. ونحن مقبلون عليه بقلوبنا.. ونحن موقنون برحمته.. وعطائه.. واستجابته.. ونحن نتذوق حلاوة الدعاء.. وحلاوة الطاعة.. وحلاوة الإيمان؟!

الصلاة.. فلاح

الأذان شعار الإسلام منذ بدأ وإلى يوم القيامة.

كلما قرأت قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (المائدة).

تذكرت ذلك المنظر عندما كنا نؤذن للصلاة في ساحة عامة ونحن مسافرون.. فكان أهل ذلك البلد يضحكون ويصرخون كالعواء. والنباح.. استهزاءً.. سبحان الله.. وصدق الله.

- إن الأذان شعيرة عظيمة من شعائر الإسلام.. ينبغي أن يفتخر به المسلمون ويتعلموا معانيه.. ويعلموه أبناءهم.. فمنذ فجر الإسلام.. كانت جيوش المسلمين تنتظر خارج البلد فإن سمعوا أذاناً علموا أنهم عند قوم مسلمين.. وإلا غزوهم.

كنت وصاحبي في الطائرة بانتظار الإقلاع.. وانطلق الآذان من هاتفه قبل أن يغلقه.. حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. لقد اختصر الأذان أهم شعائر الإسلام.. التوحيد.. والصلاة.. بدأ بـ «الله أكبر».. وانتهى بـ «لا إله إلا الله».. وبينهما «حي على الصلاة».. «حي على الفلاح»..

- من تأمل ألفاظ الآذان.. لا يسعه إلا أن يقول: إنه وحي من عند الله عز وجل.. «الله أكبر».. من شغلك.. ولهوك.. ولعبك.. مرة واثنتين وثلاث وأربع مرات.. يؤكد هذا الأمر.. فانتبه أيها الغافل.. نعم «الله أكبر».. فإذا قلتها.. اعمل بمقتضاها.. اترك الصغير.. وتوجه إلى

«اللّه.. الأكبر».. ثم قبل أن تقف بين يدي اللّه عز وجل.. انطق بأسمي كلمة وأشرف شهادة «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه».. كلمة التوحيد.. واسمع نداء اللّه لك.. حي على الصلاة.. لا تتأخر.. ولا تسوف.. ولا تؤجل.. حي.. وهيا.. انهض.. قم.. توجه.. تعال.. إلى الصلاة.. لأنها.. الفلاح، وكأن الفلاح كله.. اجتمع في الصلاة..

ـ وما معنى الفلاح؟!

ـ الفلاح.. الفوز.. و«أفلح».. ظفر بما يريد.. وفاز بنعيم الآخرة.. وقوم «أفلاح».. فائزون «لا واحد له».. ولم أجد لفظ ـ فالح ـ كاسم فاعل من الفلاح.. ولكن هناك ـ فلاّح ... محترف الفلاحة التي هي القيام بشؤون الأرض والزراعة.

ـ وما معنى «حيَّ» لغة؟

ـ «حيَّ».. على.. أقبل. وعجل.. و«حيعل»: قال: حي على الصلاة.. حي على الفلاح.. والمعنى أقبل بعجل إلى الصلاة.. وأقبل بعجل على الفلاح.. فالصلاة.. هي الفلاح.. أي الفوز بخير الدنيا والآخرة، وهذا النداء من اللّه عز وجل لذلك لا ينبغي أن يسمعه مؤمن ثم لا يستجيب له.. إلا من له عذر.. مرض أو خوف.. أما الانشغال بالدنيا فليس عذر.. لأن انشغالك بالرزق في هذه اللحظات ينقص الإيمان.. فالذي ضمن لك الرزق.. أمرك أن تترك الرزق الدنيوي.. لرزق أعظم.. وأمر أكبر.. بدأه بتذكيرك بحقيقة لا يمكن أن تنكرها «اللّه أكبر»..

ـ وهل الفلاح... محصور في الصلاة؟

ـ بالطبع.. لا.. ولكن أعظم أسباب الفلاح.. بالصلاة، فجعل الفلاح كله في الصلاة من باب التغليب.. ومن لا يصلي لن ينال الفلاح في أمور أخرى.. والذي يصلي أخذ بأهم أسباب الفلاح.. والفوز هنا هو الزحزحة عن النار ودخول الجنة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ (آل عمران).. وهذا هو الفوز العظيم.. والفوز المبين.. والفوز الكبير..

السجود

(عبدالله) ترك العمل في قطاع الاستثمار وأخذ يعمل في قطاع الدعوة من خلال لجنة التعريف بالإسلام.. صرت ألتقيه كل يوم تقريباً نتبادل التجارب...

- هل تعلم أصعب عمل على المهتدين الجدد؟

- الطهارة؟

- كلا.. بل ما بعد الطهارة.. الصلاة.. المحافظة على أدائها خمس مرات في اليوم والليلة جماعة في المسجد.. وأصعب ما في الصلاة.. (السجود) ولا سيما على الذين يدخلون الإسلام من الدول الغربية.

- عجبت لهذه المعلومة.. تابع عبد الله حديثه..

- يخبرني أحدهم.. أنه في المرة الأولى التي قرر فيها أن يؤدي الصلاة مر بصراع رهيب بينه وبين نفسه.. يقول: «أخذت الكتيب الذي يشرح الوضوء والصلاة.. وضعته على الرف الزجاجي أعلى الحنفية وأخذت أتابع التعليمات كما الطاهي الذي يدخل المطبخ للمرة الأولى.. وبعد أن انتهيت خرجت والماء يقطر من أطرافي وقد رفعت أكمامي وأطراف السروال.. فوق كعبي.. فرشت سجادتي.. تجاه القبلة التي كنت قد حددتها قبل يوم.. تأكدت من إغلاق الباب والنوافذ والستائر توجهت إلى القبلة.. وقبل أن أرفع يدي للتكبير.. تلفت للتأكد من أن لا أحد يراني.. ذهبت وتأكدت من إغلاق الباب مرة أخرى..

تابع (عبداللّه) نقل تجربة صاحبه الأميركي في أول صلاة.. وسط ذهول مني. كم نحن في نعمة عظيمة.. نؤدي الصلاة بكل يسر.. وطمأنينة..!

- وبعد أن رفعت من الركوع.. انتصبت واقفاً.. ولا أدري كم بقيت على هذا الوضع لأنني سأسجد للمرة الأولى في حياتي.. ولم أقم بهذه الحركة لأحد من قبل.. ولم يخطر ببالي أنني سأضع وجهي على الأرض لأجل أحد.. ولكنني بدأت أهوي وأصبحت أطرافي الأربعة على الأرض.. ووضعت جبهتي.. وأنفي على الأرض وبدأت أقول: «سبحان ربي الأعلى».. «سبحان ربي الأعلى».. «سبحان ربي الأعلى» ولم أتوقف عن تكرارها.. لا أدري عشرة.. عشرين.. ثلاثين مرة.. ثم رفعت.

توقف عبد اللّه.. ثم تابع:

- إنه شعور لا أظن أحداً منا يعرفه.. لأننا كنا نسجد منذ الصغر.. ولكن هذا الرجل الغربي شعر بشيء غريب في سجوده..

- هل تعلم أن السجود من «الأعمال» التي لا يجوز أن تصرف إلا للّه.. ومن سجد لغير اللّه كفر.

ولذلك قال صلى اللّه عليه وسلم.. «**لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها**» (السلسلة الصحيحة).. فالسجود لا يكون إلا للّه.. وهو أقرب وضع يكون فيه العبد لربه عز وجل.. وهو دليل الخضوع للّه.. لذلك لا يكون إلا للّه.. وإبليس أبى أن يسجد لآدم مع أن اللّه أمره مباشرة أن يفعل ذلك.. وذلك لتكبره.. فكفر.. ووقعت عليه اللعنة، واستحق الخلود في نار جهنم.

ـ وهل للإنسان أن يسجد هكذا رغبة في السجود؟

ـ شرع الله السجود.. في الصلاة.. وللشكر وللتلاوة.. ولم يشرعه هكذا دون سبب.. وعندما طلب ربيعة بن كعب السلمي من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرافقته في الجنة أرشده فقال صلى الله عليه وسلم: «**أعنّي على نفسك بكثرة السجود**» (مسلم) فهذا كناية عن كثرة الصلاة.. وليس السجود منفرداً دون شيء.. ولم يثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو أحد من الصحابة أن يسجد لأجل أن يدعو.. وإنما يدعو إذا كان ساجداً في الصلاة.

بين التيسير.. والتحريم

«**إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه**» (البخاري).

بهذا الحديث بدأت حواري مع بعض الشباب الذين يدرسون في الغربة..

اجتمعت معهم على غداء شعبي أعدته زوجتي لهم بمناسبة وجودنا في مدينتهم.. بدأت شرح الحديث منبهاً إلى أن الجلسة ليست درساً ولا محاضرة.. وإنما حوار مفتوح فأتوقع منهم أن يسألوا.. ويقاطعوا أثناء الحديث.. لا بعد الانتهاء منه.. لأنها ليست محاضرة.. كان ثامر أول المقاطعين.. شاب من البحرين.. أمضى سنتين في الغربة.. انتهى لتوه من «مرحلة اللغة».. وبدأ دراسته في الإعلام..

- دائماً أذكر لهم هذا الحديث.. وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم: «**يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**» (متفق عليه).. في جمع الصلوات.. وأكل الطعام.. والدخول إلى السينما.. وإذا فاتتنا صلاة الجمعة..

انتظرت تعليقاتهم التي لم تخل من الهجوم اللاذع.. والمزحة الثقيلة.. منها..

- لو تركنا الأمر لك.. لأبحت لنا حتى مصادقة الأجنبيات..

رد ثامر جاداً.

ـ بالحلال.. تزوجها.. ثم طلقها.. أليس ذلك حلال يا عم؟

تدخلت بهدوء مبتسماً حتى لا يحسبني أحد أنني ضده..

ـ ابتداء ينبغي أن نعلم أن الدين حق.. وأن الله يريد منا أن نأخذه بجد.. دون تهاون ولا تخاذل.. فالحلال بيّن والحرام بيّن.. والمؤمن يستبرئ لدينه فيبعد عن الشبهة.. وليس لنا أن ندخل في الدين ما ليس منه.. كما لا يجوز لنا أن نخرج من الدين ما هو فيه.. فتحريم الحلال.. لا يقل خطورة.. عن تحليل الحرام.. والمرء في كل هذا يحتاج إلى العلم.. وحيث إنكم جميعاً طلبة.. ولستم بعلماء في العلم الشرعي.. ينبغي عليكم أن تسألوا أهل العلم عما يشتبه عليكم في أمور دينكم.. ولست أنا من أهل العلم الذين يفتون.. ولكن عندما كنا في مثل حالكم.. سألنا من أهل العلم من أفتانا في كل هذه الأمور التي تسألون عنها.. فإن مشكلات كل من يدرس في هذه البلاد متشابهة..

بعد هذه المقدمة طلب أحمد الحديث..

ـ وماذا تقول في تصريحات ثامر؟

ـ **أولاً**.. وصف الدين بأنه يسر.. حقيقة لا شك فيها.. بل الله وصف تشريعه فقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨).. ومطلوب من المؤمن أن ييسر على الناس وكذلك أمر الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته بأن ييسروا ولا يعسروا ويبشروا ولا ينفروا.. فهذه أحاديث ثابتة لا يمكننا تجاهلها أو الإعراض عنها.. ثم أيضاً نؤمن بأن الله لم

يأمرنا بأمر إلا نستطيعه دون حرج والتيسير في الدين يكون مع «العجز» فمن عجز عن أمر.. عجزاً حقيقياً.. مثلاً.. من عجز عن القيام في الصلاة.. صلاها جالساً... ومن عجز عن الوضوء.. لمرض.. أو بتر عضو.. أو فقدان الماء.. غسل ما استطاع.. وتيمم لما لم يستطع.. ومن عجز عن الصيام أفطر وقضى.. فشريعتنا ليست افعل.. وإلا!! وإنما افعل ما تستطيع.. بصدق.. لأن الله يعلم طاقتك واستطاعتك.. ولكن على المؤمن أن يبذل الجهد.. فيجتهد في عباداته.. أما المحرمات فلا مجال للتساهل فيها.. فالرسول صلى الله عليه وسلم يرشدنا فيقول: «**ما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم وما نهيتكم عنه فانتهوا**» (صحيح الجامع).. ولكن ليس لأحد أن يقول.. لا أستطيع أن أصلي!! لأن الصلاة لا تسقط.. إلا بالجنون..

قاطعني أحمد..

- كان هذا نقاشنا.. هل يستطيع أحد أن يقول لا أستطيع أن أترك الزنا؟!

- بالطبع لا.. وذلك أن الممنوعات.. ليست أفعالاً يعملها العبد.. وإنما هي أمور يتجنبها.. والتجنب.. واقع أصلاً.. لا ينتفي إلا إذا ارتكب العبد الذنب.. فالذي يقترف الممنوعات يبذل جهداً ليفعل المحرم مع أنه ممنوع من ذلك ابتداءً.. فهو الذي يبدأ الفعل.. فإذا وصل مرحلة يظن معها أنه لا يستطيع «الترك».. فهذا يحتاج إلى علاج.. أو تغيير الوسط «الصحبة أو المكان».. ولا عذر له عند الله..

قاطعني ثامر..

- كيف نختصر موضوع التيسير في الدين؟!

- باختصار.. الوقوع في الحرام ليس تيسيراً وإنما هو تعد للحدود.. وفي جميع الطاعات هناك تيسير بحيث يتمكن العبد من عمل الطاعة دون حرج.. فلا يجوز للعبد أن يترك طاعة بحجة التيسير!!

الدنيا دار ابتلاء

منذ فترة طويلة لم أره محبطاً كما كان في زيارتي الأخيرة له.. في مكتبه..

- مالي أراك على خلاف المعتاد من البشاشة والهشاشة؟

- الحمد لله على كل حال.. لا شيء مهم.

ومع إلحاحي وإصراري على معرفة ما يضايقه.. أجاب.. أخيراً..

- هموم كثيرة.. البيت.. العمل.. الأبناء.. الناس..

- هذه عموميات.. هات شيئاً من التفصيل.

- مثلاً.. العمل.. تعلم أن هذه الشركة ما كانت لتصل إلى ما وصلت إليه لولا الجهد الكبير الذي بذلته في إنشائها فنياً.. لا أريد أن أمتدح نفسي.. ولكن لا أحد من الشركاء يفهم في هذه الصناعة.. كلهم أصحاب أموال.. دون خلفيات تقنية.. أنا الوحيد الشريك المهندس.. ثم بعد كل هذا الجهد والإخلاص تجد من يحسدك.. ومن يمكر بك.. ومن يخطط لأذاك.. ومن يقلل من قيمتك.. هذه واحدة.

قاطعته..

- هذا وضع طبيعي.. بل لو نلت الثناء والتقدير لكان غير طبيعي.. معظم الناس يحسدون أهل النجاح.. ويمكرون لأصحاب الإنجازات.. حسداً من عند أنفسهم لمرض في قلوبهم وفي كل ذلك اختبار لك ثم هذا في أمور دنيوية.. إن أتت أو ذهبت لا تزيد المؤمن شيئاً ولا تنقصه.. لأن المعيار الحقيقي هو معيار الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ

ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾﴾ (الحجرات).. فهذا اختبار لك.. وربما لزيادة أجرك.. أو لتنبيهك إلى أن تعمل أقل للدنيا وأكثر للآخرة.. فلا تحزن.. واعلم أن الله يعلم مكر هؤلاء.. ورب العالمين لا يتخلى عن عباده الصالحين.. فاستعن بالله ولا تحزن.. وأكثر من قول.. (حسبي الله ونعم الوكيل).. وتذكر دائماً قول الله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ (الزمر: ٣٦)..

كان صاحبي يستمع باهتمام.. وربما حرك شفتيه يتمتم.. ربما يقول «حسبي الله ونعم الوكيل».

وماذا سوى العمل؟

- البيت.. تريد لأهلك وأبنائك الصلاح والتقوى.. تريد لهم الخير في الدنيا والآخرة.. أشعر أن همهم الوحيد هو الدنيا.. المال. السفر.. الثياب.. المركب.. ولا بأس بكل ذلك.. فالحمد لله لقد مَنَّ الله علينا بالمال.. بحيث لا نعجز عن أن نقتني ما نشاء.. ولكن.. لا همّ لهم في الآخرة.. لا حرص على الصلاة في وقتها كما يجب.. ولا حرص على قراءة القرآن والاستماع إليه.. لا حرص على طلب العلم الشرعي.. لا حرص على الثياب الشرعية كما ينبغي.. أمور كثيرة تضايق المرء..

- هذه لك فيها حق.. ولكن ألا ترى أننا نحن سبب فيما يحصل في بيوتنا.. بل ربما من أهم الأسباب.. وذلك بحرصنا على توفير الدنيا لأهلنا على حساب الآخرة.. ونريد منهم أن ينشؤوا يريدون الآخرة ونحن بعيدون عنهم..

- أعلم ذلك.. ولكن أشعر أن لا حيلة لي بعد هذه السنين..

أردت أن أهون عليه قليلاً..

- يا (أبا صالح).. دع الهم.. لا تحزن.. ولا تقلق.. فالدنيا كلها ابتلاء وامتحان.. إن أقبلت فهي ابتلاء.. وإن أدبرت فهي ابتلاء.. إنها دار مؤقتة بكل ما فيها.. من تعب.. وهم.. وحزن.. وشدة.. وفقر.. ومرض.. وغنى.. وفرح.. وسعادة.. كل هذا سيذهب.. لأنها متاع.. والمتاع لا يدوم.. فاحمد الله على الهداية.. والعافية.. والزوجة الصالحة.. والذرية الطيبة.. ودع عنك هموم الدنيا.. فإنها زائلة..

حلالها حساب.. وحرامها عذاب

إنها الدنيا..

صاحبي شعر بالظلم والإحباط بعد أن تم تعيين من هو أصغر منه سناً وأقل مرتبة علمية في منصب (العميد المساعد) في الكلية.. رغم أن صاحب القرار - كان يظن - أنه قريب منه.. ولمح له بالمنصب..

- لا عليك.. منصب.. معناه.. مسؤولية أخرى.. وحساب آخر بين يدي اللّه.. ولو كانت قد كتبت لك لما تعدتك.. فالحمد للّه فإنك لا تدري إن كان هذا المنصب خير لك أم شر.. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ١٩﴾ (النور).

- أنا مؤمن بكل ذلك.. يفضل رجلاً لا يحب الدين.. ولا يؤدي الصلاة.. بل ويعد التدين تخلفاً.. يفضله على من يصاحبونه إلى المسجد كل يوم.. وفيهم من الخلق ما يرضي اللّه.. ولهم من المكانة العلمية أعلى من الذي عينه.. هذا هو المحزن في الأمر..

- هذه كانت أول عملية اختبار لـ (بوسالم) ويبدو أنه لم يوفق فيها.. فما كان ينبغي أن يعين (هيثم) في هذا المنصب.. وهو يعلم عدم إلتزامه.. بل وجحوده للصلاة.. ولكنه يرى أن هذه الأمور دنيوية.. ولا نأخذ القضايا الشرعية فيها..

- هداه اللّه.. وصل إلى المنصب.. وتقلبت الموازين لديه.. ألم يعلم أن الدنيا سراب زائل.. ومتاع قليل.. هذه الدنيا تقبل على الإنسان

متزينة.. فاتنة.. فتبهر العين.. وتسلب العقل.. وترى أكثر الناس يلهثون وراءها.. ولا تشبعهم.. ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾ (الأعراف: ١٧٦).. هذه الدنيا المستكثر منها.. يستكثر من الحساب.. أو العذاب.. إن حصل على الدنيا من حلال سيحاسب عليه.. وإن كان غير ذلك سيعذب عليه.. فلماذا اللهث وراءها.. والاغترار بها..

ـ إنها النفس.. والشيطان.. ألم يتعهد الشيطان بإغواء جميع ابن آدم بكل وسيلة.. ﴿ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ (الأعراف).. فيزين الشيطان الدنيا وما فيها.. المنصب.. السلطة.. المال.. وهذا يعني سعة في العيش.. ومتعة في الدنيا.. وزيادة في الرغد.. وهكذا.. هذا يؤدي إلى ذاك.. وذاك يطلب هذا.. دائرة لا تنتهي إلا بموت الإنسان.. ولو تدبر أحدنا آيات الدنيا.. لعلم أن الله ذمها في جميع كتابه.. ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ١٨٥﴾ (آل عمران).. ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾ (الرعد).. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ٥﴾ (فاطر).. ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ (محمد).. ﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ١٦ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ١٧﴾ (الأعلى).. بل الرسول صلى الله عليه وسلم لعن الدنيا.. فقال صلى الله عليه وسلم: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله.. وما والاه**» (السلسلة الصحيحة).. إنها النفس التي لا تشبع.. إلا من رحمه الله عز وجل..

ـ أحدنا عندما يكون في جو إيماني.. يقرأ كتاباً في الزهد والرقائق..

يستمع إلى محاضرة عن الآخرة.. يكون في خطبة جمعة فيها المواعظ.. أو يزور المقبرة يرى حال الناس بعد الموت.. تهون عليه الدنيا.. بل ربما كرهها.. وكره حرصه عليها.. ولكن عندما ينشغل بيومياته.. وينغمس في تلبية حاجاته الدنيوية.. ينسى كل هذا.

قاطعته..

- وهنا كانت الصلوات.. ذكرى.. وكان القرآن موعظة.. وكانت الجمعة تقويم.. وكانت الصحبة الطيبة طوق أمان.. حتى لا ينغمس في الدنيا وينسى الآخرة.. فلا يعبؤون كيف أتتهم الدنيا.. من حلال أم حرام.. هؤلاء إنما ينسون مصلحة أنفسهم.. لأنهم إنما جمعوا عذابهم بأيديهم وجهدهم وعمرهم.. فأفنوا حياتهم ليعذبوا أنفسهم يوم القيامة.. فهل في ذلك ذرة من عقل؟!

لذة الحلال

صاحبي من القائلين: «كل ممنوع مرغوب».

ـ ليس لدي شك بأن الذي يرغب فيما حرم اللّه عز وجل لديه خلل في إيمانه.. وذلك لأن اللّه امتنّ على المؤمنين بأن كرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان.. ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ (الحجرات).

ـ إذاً ما الدافع لدى جميع الناس.. أو معظمهم.. لكي يرغبوا فيما يمنعون عنه؟!

ـ وهل يعرضون عن الشيء إذا نالوه؟!

ـ كلا.. ولكن يقل حرصهم عليه.

ـ دعنا لا نتكلم في العموميات.. اختر شيئاً محدداً..

ـ الخمر مثلاً..

تعجبت من اختيار صاحبي.. تابع حديثه.

ـ حقيقة الخمر مرغوبة لأنها ممنوعة.. وفرها للناس.. يقل طلبهم لها.

قلت باستغراب شديد:

ـ تتحدث وكأنك على يقين من أمـرك.. من قال إنـك إذا وفرت الخمر للناس سيقل طلبهم لها.. ثم.. من قال إن الخمر مرغوبة لأنها ممنوعة؟! إن الذين يشربونها.. إنما يدفعهم الإدمان.. والمداومة عليها ويزينها لهم الشيطان.. وترضي شهوات أنفسهم.. بالله عليك ما اللذة في شراب يحرق الأحشاء.. ويذهب العقل.. ويسبب الصداع.. ويفقد الإنسان كرامته؟! حتى العاقل من غير المسلمين يقر بأن الخمر لا خير فيها.. وأين هذه اللذة من لذة شراب بارد حلال في جو حار بعد عطش وتعب؟! شربة.. تشعر بها فترقرق من طرف لسانك إلى أعماق أحشائك.. هذه هي اللذة.. أما الخمر فليس فيها لذة للمسلم في الدنيا ولكن لذته في الآخـرة.. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ (محمد).. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الصافات).. هذا هو الخمر الذي ينبغي أن يسعى له العاقل.. أما خمر الدنيا.. فلا خير فيها.. وكذلك كل حرام.. ومن قال إن في الحرام لذة.. فإنه مصاب بخلل في إيمانه.. وحتى هذا لذته لحظة وقوعه.. أما بعد الوقوع في الحرام.. فلا لذة له.. أما الحلال.. فلذته تبقى.. انظر إلى العلاقة الطيبة مع الزوجة.. انظر إلى الكسب الحلال من التجارة.. انظر إلى الطعام الحلال والشراب الحلال.. كلها طيبات يتلذذ بها المؤمن ويتمتع.. وفي ذات الوقت يرضي الله عز وجل.. كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «**وفي بضع أحدكم صدقة.. قالوا يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر**» (مسلم).. لمن كان صاحب فطرة سليمة..

كل حرام كريه.. ومن استحسن الحرام وتلذذ فيه.. يكون ذلك للحظة وتزول.. أما الحلال فيبقى..

تردد صاحبي قبل أن يرد:

ـ بصراحة.. هذه نظرة غريبة.. لم أسمعها من قبل.. مع أنها منطقية.. وأظن أنها صحيحة.. ولكن معظم الناس لا ينظرون لها بالمنطق نفسه.. (لذة الحلال!) عبارة جميلة.. ولكنك بهذا المنطق سحبت البساط من تحت دعاة الحرام..

أضحكني صاحبي بعبارته الأخيرة..

ـ وكيف سحبت البساط من تحت أقدام دعاة الحرام؟!

ـ إذا قلت إن لذة الحلال.. أدوم.. وأحلى.. فكيف يروجون لحرامهم الذي لذته لحظية.. وتنقلب نكداً بعد ذلك.. إذاً يبور سوق الحرام.. وهؤلاء يريدون للحرام أن يروج!!

ماذا قدمت لحياتك؟

صباح الخميس الماضي خرجت قرابة التاسعة صباحاً لأداء واجب التعزية لأحد الأصدقاء..وصلتني رسالة قصيرة عبر الهاتف (بومصعب.. عطاك عمره).. دون شعور.. كانت ردة فعلي ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ (البقرة).. كان في خطتي أن أزوره السبت في المستشفى حيث علمت أنه أصيب بنوبة قلبية قبل أسبوع فقط.. رحمك الله يا أبا مصعب..

بعد أن أديت واجب العزاء صاحبني (بو مبارك)..

- إنا لله وإنا إليه راجعون.. إنه أصغر منا عمراً.

- وهل يعرف الموت سنا أو عافية أو غنى أو منصبا.. إنه الأجل الذي كتب قبل خلق السموات والأرض إذا أتى لم يستأخر ساعة ولم يستقدم.. والنداء الأول هو النداء الأخير.. لا فرصة أخرى ولا تأخير.. ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۚ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤﴾ (نوح).

- لا حول ولا قوة إلا بالله.

- والله لقد كان نعم الرجل.. خلقاً.. ومعاملة.. ودينا.. الجميع يشهد له بحسن الخلق.. لم يتمتع بالشقة التي اشتراها في لبنان.. فرغم أنه اشتراها منذ ثلاث سنوات إلا أنه لم يتم تأثيثها إلا قبل أشهر ولعله أراد أن يقضي الصيف القادم فيها.. فسبقه الأجل.

- هذه حالنا.. نعمل.. ونخطط.. ونجهز.. ولا نعلم ما الذي سيأتينا

غداً.. والغافل من نسى آخرته وعمل لدنياه.. مع أنه مقبل على تلك الحياة.. يقيم فيها إقامة أبدية.. وتارك هذه الحياة.. سريعاً.. ولو بعد حين.. ولذلك ينبغي أن يتساءل أحدنا دائماً.. (ماذا قدمت لحياتي؟) حياتنا التي نحن مقبلون عليها بلا شك ولا ريب.. ماذا قدمنا لها.. لأن الخاسر يقول ندماً يوم القيامة.. ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ (الفجر) وذلك عندما يتذكر أنه لم يعمل لآخرته.. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾﴾ (الفجر).

توقفنا عند إشارة المرور لننعطف يسارا في اتجاه المواقف.

- لو تتبع أحدنا آيات الله عز وجل.. وهي الحق الذي لا ريب فيه.. لوجد أن الله حذرنا من هذه الحياة.. وذمها.. وذكرها بصفات تجعل العاقل لا يتشبث بها على حساب الآخرة.. أكثر وصْف لها. إنها (دنيا).. مؤنث (أدنى).. قريبة.. حاضرة.. وهي (لعب ولهو)..و(متاع)، أي مؤقتة.. و(زينة).. من آثرها ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النازعات).. وكثير من الناس يؤثر الحياة الدنيا ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى).

- هل لاحظت أن الله تبارك وتعالى.. يذكر.. (الحياة الدنيا).. في مقابل (الآخرة)..دون أن يذكر (الحياة الآخرة).. مثلاً: ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾﴾ (إبراهيم).. ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾﴾ (إبراهيم).. ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْأَخِرَةِ هُمْ

غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ (الروم) ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ (غافر).

ـ إنها ملاحظة جيدة.. لعلها من باب كمال القرآن فمن الأبلغ أن تذكر الحياة مرة واحدة.. ثم تذكر الدنيا والآخرة.. ومعلوم أن الدار الحياة الآخرة.. وهي الحياة الحقيقية الدائمة المستقرة... ولذلك عندما ذكر الله الدار الآخرة قال عز وجل: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ (العنكبوت). وفي المعجم الوسيط.. (الحيوان).. الحياة.. أى الحياة لا تكون إلا في الدار الآخرة..

ـ إن أحدنا كلما سمع وفاة أحد يعرفه زهد في الدنيا وأقبل على الآخرة ولكن سرعان ما ننسى وننشغل بالدنيا وأعمالها وما فيها ونتعب أجسادنا ونشغل عقولنا لأجلها.. وكأننا سنقيم فيها أبداً.. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: «**ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم مضى وتركه**» (السلسلة الصحيحة).. وهذه هي الحقيقة.

ـ نعم هذه الحقيقة.. ولا بأس أن نعمل في الدنيا.. ونتمتع بما أباحه الله لنا فيه.. ولكن دون أن تشغلنا عن الآخرة.. فلا خير في تجارة تشغل عن الصلاة.. ولا خير في منصب يلهي عن ذكر الله.. ولا خير في الدنيا التي تبعد عن طاعة الله.

حصيلة عمري

قررت وصاحبي أن نصلي المغرب في المسجد القريب من منتزه الضباعية، ثم نتمشى بين العشاءين في المنتزه إلى صلاة العشاء.. خلا المكان من الزوار، فكان هادئاً.. تكاد تسمع صوت الصمت فيه!!

- الآن وقد تعدينا الخمسين أو دعني أتحدث عن نفسي: تعديت الخمسين، وليس في رصيدي من الأعمال شيء.. لا أدري بماذا سأقابل ربي؟!

- بل لديك من الأعمال الشيء الكثير.. ألم تحافظ على الصلوات الخمس معظم الوقت حاضر في جماعة المسجد؟! ألم تصم أشهر رمضان جميعها؟! ألم تحج الفريضة وزدت على الفريضة مرات عدة؟! ألم تكن باراً بوالديك حتى توفاهما الله؟! ألم تخرج زكاة مالك كل عام؟!

قاطعني:

- هذه أركان الدين ويعملها كل مسلم.

- وهذا هو المطلوب منك بل أعظم من كل تلك الأعمال.. ألم تحقق التوحيد فكانت عقيدتك سليمة تعتقد دون خلل أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وتؤمن بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، وأن القضاء خيره وشره من الله؟!

- نعم.. فعلت كل ذلك.

- وماذا تريد بعد؟! ألم تكن تجتنب الكبائر - على ما أعلم - ولا تأكل مال أحد ولا تظلم أحداً؟! بل أعلم أنك كنت تعين المحتاجين وتقف مع المظلومين.

ـ وهل هذا يكفي؟!

ـ نعم. بإذن الله تعالى فلا تستصغر هذه الأعمال العظيمة.. انظر إلى حصيلة أعمار الممثلين.. والمطربين.. والفنانين.. تخيل نفسك مغنياً مشهوراً محلياً أو إقليمياً أو عالمياً أو ممثلاً سينمائياً.

ابتسم صاحبي.. نفخ صدره ورفع رأسه:

ـ حصيلتي إذاً ثلاثون «ألبوما» بمعدل تسعة أغان لكل «ألبوم»، أي «٢٧٠» أغنية.. وخمسون حفلة غنائية ساهرة على الهواء مباشرة، سجلت وتبث بين فترة وأخرى.. وعددا لا أحصيه من الحفلات الخاصة، وفي المقابل.. فاتني عدد من الصلوات لا أعلمه.. وعلي أيام من صيام رمضان لم أقضها إلى الآن، وبعض الذنوب المتفرقة هنا وهناك.. لا أذكرها.

ـ وإذا كنت ممثلاً مشهوراً؟!

ـ حصيلتي.. أكثر من مائة فيلم.. ومثلها عدد المسرحيات التي أضحكت الجمهور فيها.. ومثلها أو أكثر بقليل تمثيليات تلفازية.. ولا تسألني عن الصلاة؛ فقد فاتني شيء كثير منها، وكذلك الصيام.

نظرت إلى صاحبي.. وبدا أنه فهم الغاية من حواري:

ـ أي الحصيلتين خير؟! فاطمئن ولا تغتر ولا تقنط.. ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾ (المجادلة).

يوم.. مع ملك الموت

هاتفني «فهد» ـ وهو الوحيد الذي يهاتفني في أي وقت دون حرج ـ لنخرج بعد العشاء.. دون أن يحدد سببا أو يذكر مكاناً.. وبالفعل.. أصبحت وجهتنا أحد المجمعات غير المزدحمة لتناول المبردات.

ـ تخيل أنك تتابع ملك الموت لمدة ٢٤ ساعة!! ولن تستطيع ذلك.. ولكن لمجرد الاعتبار.. يقبض أرواح عشرات الآلاف من البشر.. هذا شاب قبض روحه وهو «مخدَّر».. وذاك في حادث سيارة.. وطفل حديث الولادة.. لفظ أنفاسه ولم يصرخ.. وطفل تناول قطعة حلو فاختنق بها.. وصبي سقط في حفرة بينما كان يلعب الكرة.. وامرأة كانت تتجهز لزفافها القريب فتوقف قلبها.. وزوجان كانا في رحلة سياحية فغرقا في النهر.. وآخر لدغته حية.. فمات من تأثير السم.. وآخر سافر ليزور مريضاً.. فمات في المستشفى.. وشباب خرجوا في رحلة صيد بحرية فغرق قاربهم. ومريض ثري سافر تحت عناية فائقة فمات في الطائرة.. وامرأة سافرت لزيارة أقاربها فماتت عندهم.. من أقصى مشرق الأرض.. إلى مغربها.. عشرات الآلاف من الأبدان التي فارقتها أرواحها.. تدفن.. ويهال عليها التراب ويمضي الأحياء بعد الدفن إلى مشاغلهم.. وتستمر الحياة.. كنت أستمع لصاحبي.. متجاوباً معه.

ـ وما الذي جعلك تفكر في هذا الأمر؟

ـ اليوم الخميس.. تلقيت نبأ وفاة أربعة ممن أعرف.. اثنان عن طريق ابني.. وواحد من نسبي.. وواحد من رواد المسجد.. فحدثت نفسي..

نحن في هذه الدائرة الضيقة لدينا أربع وفيات.. فكيف ببلدنا.. وإقليمنا.. وقارتنا.. والعالم؟! هذا يموت كافراً.. وذاك سكران.. وثالث وهو يغني.. ورابع مخدرا.. وخامس ساجداً.. وسابع نائماً.. وثامن طائعاً.. وتاسع عاصياً.. وهكذا.. دون أن نستطيع حصرهم.. ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾ (الليل).. وملك الموت موكل بقبض هذه الأرواح جميعاً.. بالطبع مع الملائكة الذين معه.. ولو شاء الله لجعله وحده.. فهو سبحانه قادر على ذلك.. ولكن الملائكة التي تتولى نزع الروح منها ملائكة رحمة وملائكة عذاب.. والكل يموت.. لا يدري أين يموت.. ولا متى يموت.. ولكن ربما يختار على أي شيء يموت.. ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ (البقرة).. ولا مجاملة في الموت.. الصغير والكبير.. الغني والفقير.. الصحيح والسقيم.. الصالح والطالح.. المطيع والعاصي.. وقليل من يعتبر.. مهما ارتفع شأن الإنسان.. ومهما علا ذكره.. وزاد ثراؤه.. فإنه سيموت.. دون أن يعلم المكان والزمان.. بل يسعى إلى الموت من حيث يريد الفرار منه.. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ (الجمعة).. فليس أمامنا سوى عدم الجزع.. والهدوء.. والاستعداد لقدوم هذا الزائر في أي وقت والدعاء أن تكون خاتمتنا حسنة مستورة..

أمور لا تنفع.. بعد الموت

كنت في طريقي إلى المسجد.. لحق بي ـ صلاح ـ مراسل الكلية.. الذي يرى كثير من أعضاء هيئة التدريس أنه أهم شخص في العمل؛ لأهمية ما يقوم به من خدمات الجوازات والإقامات وتذاكر السفر ورخص القيادة.. وغيرها من أمور إدارية.. ابتدرته:

ـ أرى ما تبقى من الشعر اشتعل شيباً.. وما زلت في مقتبل العمر يا صلاح.

ـ أي شباب.. أنا في ذات عمرك.. إلا أن الهموم زادت عشر سنوات في عمري.

ـ سبحان الله.. إن الأعمار تنقضي بسرعة والسنين تمضي كالبرق.. كم من زملائنا توفوا.. وكم من أصدقائنا ماتوا.. فالموت حولنا ولا ندري متى يأتي داعي الله.

ـ نسأل الله حسن الخاتمة.. وأحدنا يرجو أن سعيه إلى الصلاة.. والمحافظة عليها.. والأعمال الصالحة.. تجعل معاده خيراً.

توقفنا لتسمح لنا المركبات بالعبور.

ـ نعم.. الصلاة من أعظم الأعمال التي تنفع يوم القيامة، ولا أهم منها إلا التوحيد.. الأنفع دون منازع.

ـ ماذا تعني بالتوحيد؟

ـ العقيدة الصحيحة بـالله.. عز وجل .. في العبادة.. والدعاء.. والتقرب والذبح والنذر.. والأسماء والصفات.. والاستعاذة.. والتوكل.. وغيرها من أمور قلبية.. وتعبدية.. وأركان الإيمان الخمسة.. الإيمان بالله.. وملائكته.. وكتبه.. ورسله.. واليوم الآخر.. والقضاء خيره وشره من الله.. وبعد الإيمان الصلاة.. ثم أركان الإسلام.. واجتناب الكبائر.

ـ إنك تجعل المسألة تبدو سهلة يسيرة.

ـ هي كذلك لمن يسرها الله له.. ولكن دعني أخبرك عما لا ينفع يوم القيامة.. أموالنا التي تبقى بعد موتنا.. وبيوتنا التي شيدناها.. وأوقاتنا التي قضيناها في غير ذكر الله.. وطعامنا الذي أكلناه تلذذاً وشهوة.. وأولادنا إن لم يكونوا من الصالحين الذين يدعون لنا.. ومناصبنا التي تهافتنا عليها لنبرز بين أقراننا.. وأعمالنا التي أجهدنا أنفسنا لإنجازها لأجل السمعة بين أهلينا.. إجمالاً.. الدنيا كلها التي حصلنا عليها لن تنفعنا يوم القيامة.. إلا ما كان في الله.. ولله.

ـ إذاً معظم الجهد والمال والوقت لا فائدة منه.

ـ هو كذلك.. ألم تسمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله.. وما والاه أو عالماً أو متعلماً» (السلسلة الصحيحة)، ويوم القيامة.. يقول الإنسان عندما يرى المآل: ﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾﴾ (الفجر)، وذلك عندما أيقن أن (الحياة).. هي التي في الآخرة.. والدنيا لم تكن حياة.. وذلك أنها (لا شيء) بالنسبة للآخرة.. لا في طولها.. ولا نعيمها.. ولا عذابها.. لا شيء على الإطلاق.

بلغنا باب المسجد.. فإذا بالصلاة تقام.. نظر كل منا إلى الآخر، كأنه يعتب عليه تأخره عن أداء ركعتين قبل الصلاة.. والوقوف في الصف الأول.. فقد فاتنا شيء ينفعنا للآخرة لأجل شيء لن ينفعنا عند لقاء الله.

ستيني.. لا يصلي

توقفت صلاة الجمعة في مسجدنا منذ أكثر من شهرين. ومع هذا التوقف تغير نظام نهاية الأسبوع لدي.. صرت أصلي مأموماً في أحد مساجد منطقة المخيمات والشاليهات جنوب البلاد.. وأكثر صلاتي في مسجد ضاحية علي الصباح «أم الهيمان» سابقاً، كما تغيرت عادات صباح الجمعة.. حيث كنت أقضي الوقت كله في الاطلاع والتحضير.. أصبحت أمارس الرياضة من التاسعة إلى العاشرة مشياً على رمال الشاطئ.. ثم أغتسل وأذهب إلى المسجد.

صادفته صباح إحدى الجمع.. يتمشى.. ألقيت عليه التحية.. ردها بأحسن منها.. وفي طريق العودة.. مررت به جالساً يحتسي القهوة بجانبه طاولة صغيرة عليها صحف اليوم.. دعاني للجلوس.. لبيت الدعوة.. قدم لي القهوة.. أخذت الفنجان.. وضعته جانباً لأشرب الماء أولاً.

تبادلنا أحاديث كثيرة.. عرفت أنه صاحب شركة متوسطة.. دخله خمسة أضعاف دخلي الشهري.. يحب السفر.. وإذا كان في الكويت.. قضى نهاية الأسبوع في الشاليه.. وحده مع سائقه وخادمه. استأذنته للاستعداد للصلاة.. دعاني لزيارته بعد الرابعة للشاي.. لمت نفسي: «لِمَ لم أدعه للذهاب إلى المسجد معي؟».. رجعت إليه بعد أن قطعت سبع خطوات:

- «بو مشاري» سوف أذهب لصلاة الجمعة.. تريد أن أمر لنذهب معاً؟

- كلا.. شكراً.. لدى أعمال أريد إنجازها.

شعرت بالإحراج:

- إذاً أراك في الرابعة.

تساءلت: ربما لا يصلي.. أو ربما به مرض يمنعه من الذهاب للمسجد.. لا.. لا يمكن أنه لا يصلي وقد تجاوز الستين.. وهنا تذكرت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الستين: «**أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك**» (صحيح الجامع).. «**معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين**» (صحيح الجامع الصغير).. «**إذا بلغ الرجل من أمتي ستين سنة فقد أعذر الله إليه في العمر**» (صحيح الجامع).. وفي رواية: «**أعذر الله إلى امرئ أجل أجله حتى بلغ ستين سنة**» (صحيح الجامع).

أديت الجمعة في مسجد ضاحية علي الصباح.. خطبة قصيرة.. لم تتجاوز اثنتي عشرة دقيقة.. قبل الرابعة بعشرين دقيقة كنت أتمشى على رمال الشاطئ.. فإذا بصاحبي جالس يقلب الصحف.. وخادمه جالس على كرسي بجانبه.. ألقيت التحية.. أشار إلي بالجلوس في مقعد وضع عليه وسادة مريحة:

- فيما يتعلق بالصلاة.. أنا لا أصلي الجمعة.. ولا أذكر متى دخلت المسجد لأداء صلاة الجمعة.

فاجأني بطريقة حديثه الهادئة الباردة، وكأن الأمر لا شيء فيه..

- في رمضان.. أذهب أحياناً لصلاة التراويح.. إن كانت قصيرة..

سريعة.. أما الجمعة.. فإما أن أكون على سفر.. أو هنا في الشاليه.. وفي الحالتين لا أصلي.. وعموماً أتعب من الجلوس فترة طويلة.

حدثتني نفسي: «ترى اجتماعات العمل تستغرق أقل من عشر دقائق؟!».

- أما أنا يا «بو مشاري».. فلا أذكر متى آخر مرة فاتتني صلاة الجمعة.. ولا يحدث هذا إلا إذا كنت على سفر ولم يكن هناك مسجد تقام فيه الجمعة.

ضحك «بو مشاري».. تناولنا أحاديث أخرى كثيرة.. ولكني عاهدت نفسي أن أجعله يصلي الجمعة.. مهما استغرق الأمر!!

حجاب بلا صلاة.. أم صلاة بلا حجاب؟!

شقيقتي الصغيرة - وهي أم لخمسة أبناء - بدأت منذ أشهر بالاهتمام الجيد بأمور الدين.. تحضر الدروس.. تستمع إلى الأشرطة.. تشارك في نشاطات فرع الجمعية النسائية.. وبدأت تعطي دروساً عند اجتماع الأخوات في منزل الوالدة كل أربعاء.. حتى أصبحت المفتية هناك!!!

- أرى ألا تصدري الأحكام - ولو بين الأخوات فقط - اعتماداً على حديث سمعتيه أو درس حضرتيه.

- تقصد إعتراضي على سفرهن إلى العمرة دون محرم؟

- كلا.. لا أقصد موضوعاً بعينه.. ولكن على العموم.. جميل أن يلتزم المرء بتعاليم الدين.. ويتمسك بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.. ويأمر بالمعروف.. وينهى عن المنكر.. ولكن برفق.. ويركز على نفسه.. وبيته أكثر مما يركز على الآخرين.. وخاصة في البدايات.. فأسهل شيء أن ترتدي الفتاة الحجاب.. ويطلق الشاب اللحية وتتغطى الفتاة بالسواد.. ويقصر الشاب ثوبه.. ولكن الأجمل أن يصاحب ذلك.. إخلاص في القلب.. واتباع في العمل.. وعلى قدر الاستطاعة حتى لا ينتكس حاله بعد ذلك..

كانت تستمع.. وفي المجلس واحد من الإخوة.. وشقيقتين أخريين..

- فالأولى بالمرء أن يلتزم بالصلاة في وقتها.. وخاصة صلاة الفجر.. على أن يقصر ثوبه.. ويفوت الصلاة.. وكذلك الفتاة.. الصلاة بالنسبة لها أولى من الحجاب..

اعترضت.. مقاطعة..

- وكيف للفتاة أن تصلي إن لم تكن محجبة؟!

- من شروط الصلاة ستر العورة.. فإذا حان موعد الصلاة دخلت المصلى، ولا يخلو مصلى من أثواب الصلاة، لبست الثوب وصلت..

قاطعتني مرة ثانية..

- وتخرج بعد الصلاة.. تتسكع في السوق.. يراها الرجال كاشفة شعرها.. مظهرة مفاتنها.. متبرجة.. أمام الأجانب..

- أنا لم أقل أن هذا هو الوضع الأمثل.. ولكن هل تريدين للفتاة أن تتحجب دون أن تصلي.. أم تصلي وإن لم تكن محجبة؟!

- الصلاة بينها وبين ربها.. أما الحجاب.. فإنه يحفظها من أن تفتن الرجال.. وترتكب الآثام أن ينظر إليها الأجانب..

- لم تجيبي على سؤالي.. الصلاة.. أم الحجاب.. إذا كان لا خيار إلا هذا؟

ترددت.. همت بالإجابة ثم تراجعت..

- الحجاب والصلاة.. ولكن الحجاب أولاً.. إنه رمز المرأة المسلمة وشعار المرأة العفيفة كما قال الله.. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ (الأحزاب).

ـ اسمعي يا أختاه.. نعم المطلوب من المرء أن يلتزم تعاليم الإسلام كلها .. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ ﴾ (البقرة).. وألا يأخذ شيئاً ويترك آخر.. ولكن ترتيب الأمور في دين الله.. أولاً.. التوحيد.. فلا قيمة لأي شيء إن وقع المرء في شرك.. وكل ذنب يغفر إلا الشرك.. فهذا أول ما ينبغي أن يتعلمه المرء ويعلمه.. ثم في العبادات الفرائض.. وأهمها الصلاة.. وفي المعاملات الأخلاق.. وأهمها الصدق.. وما تقرب عبد بشيء أحب إلى الله من الفرائض.. ويترك الكبائر.. وأشدها الرياء (الشرك الأصغر).. ثم الكبائر الموبقة.. وفي كل ذلك يلزم المرء نفسه.. ويحاسبها قبل أن يكلم الآخرين.. فكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم «**إن أحدكم يرى القذاة في عين أخيه وينسى الجذع في عينه معترضاً**» (السلسلة الصحيحة) .

كانت تستمع.. باهتمام أحياناً.. وبدونه أحياناً أخرى.. قاطعتني.

ـ والقصد.. ماذا تريد أن تقول؟!

ـ أريد أن أقول.. إن اتباع المرء لتعاليم الدين شيء جميل.. وعليه أن يزداد علماً وعملاً.. وأن يكون على ذلك أحرص منه على أن يلقي الدروس.. ويتصدر المجالس.. ويتصدى للفتوى.. والكلمة الطيبة تأتي في الحديث العابر.. والذكرى تأتي في المجلس عفوياً.. والموعظة تلقى أثناء الحديث العام.. فإن هذا أبلغ.. وأنسب لك من أن تجمعي الجميع للاستماع إليك وكأنك شيخ انتهى إليه علم الآخرين..

بماذا ستلاقين ربك؟

مع تقدم العمر.. تتغير قيم الأشياء..

في لحظة هدوء خلا فيها البيت من الجميع.. جلست وحدي.. في زاوية غرفة الاستقبال.. لم أشعل الأنوار.. أردت هدوءاً تاماً.. كان الوقت قبيل المغرب.. فجأة.. أدار أحدهم المفتاح.. اندفع بسرعة إلى الداخل..

كانت صاحبتي.. لم تنتبه لوجودي.. أسرعت إلى الحمام.. خرجت بسرعة توجهت إلى القبلة.. أدت أربع ركعات.. ولم تنتبه لوجودي إلا بعد أن أنهت الصلاة.. تفاجأت.. كان الوقت قبل المغرب بعشرين دقيقة..

ـ أنت هنا؟!

لم أجبها.. تابعت..

ـ كان يوماً متعباً.. منذ الصباح الباكر..

بقيت منصتاً..

ـ خرجت الساعة السابعة والنصف.. أخذت رتاج (حفيدتنا) إلى الحضانة.. ذهبت بعدها إلى المستوصف.. استخرجت شهادات الحقن.. ثم إلى الخياطة.. ثم إلى السوق.. ومرة أخرى إلى الخياطة.. ثم إلى فرع الأحذية في الجمعية لآخذ حقيبة (شيماء).. ثم إلى رتاج مرة أخرى.. ثم إلى موعد الأسنان.. ومرة ثالثة إلى الخياطة.. ثم إلى بيت شيماء.. وهأنذا بالكاد أدرك صلاة العصر..

ـ يعطيك العافية..

أشعرتها كلمتي بشيء من الراحة.. ألقت بثقلها على الأريكة بجانبي..

ـ كلما كبر الأبناء.. تكثر مشاغلهم..

ـ ولكن أحدنا ينبغي ألا ينجرف وينسى الأولويات..

ـ وماذا نستطيع أن نعمل إذا تزاحمت الأولويات؟!

ـ نضع خطوطاً حمراء.. جميل أن يخدم أحدنا أبناءه.. ويتعب من أجلهم.. ولكن ليس على حساب آخرته.. تأملي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ (التغابن).. دعينا نتحدث بصراحة.. لو أن أحدنا ـ لا قدر الله ـ مات اليوم.. وهذا ليس ببعيد.. بماذا سيلاقي ربه؟!

تابعت حديثي.. لأنها أبدت استعدادها للسماع..

ـ ما قيمة كل ما نعمله.. إذا فوتنا الصلاة عن وقتها؟! لا شيء؛ بل تعب في الدنيا.. عذاب في الآخرة.. هذا إذا قدر الأبناء ما نعمل لهم.

لذا يبقى السؤال الذي أردده دائماً.. بماذا سألاقي ربي؟! بثروة جمعتها لأجل أبنائي؟! بمنصب أكسبني مكانة مميزة بين أقراني؟! بجسد رياضي أتباهى به بين أصحابي؟! كل هذا لا قيمة له مع انعدام العمل الصالح.

سكتت.. ثم أجابت..

ـ حق ما تقول.. أما أنا فلا شيء عندي ألاقي به ربي.. اللهم إلا صلاتي وأصبحت في الفترة الأخيرة منشغلة حتى عن صلاتي.. أسأل الله الرحمة..

ـ أحدنا.. قد ينشغل في فترات.. زحمة العمل.. فترة الامتحانات.. مرض أحد المقربين.. سفر طارئ.. ولكن لفترة محدودة.. ودون تجاوز الخطوط الحمراء.. ولكن سرعان ما ينبغي أن يرجع إلى عمل ما ينفعه عند لقاء ربه.. فيعمل على أن يلقى الله.. بحفظ أجزاء من كتابه.. بنشر علم ينفع.. بإعانة الفقراء وسد حاجاتهم.. بكفالة أيتام.. بإصلاح بين الناس.. ومن الناس من سيلاقي ربه.. بألبومات غناء.. وأفلام.. ورقص.. ومسرحيات فكاهية.. نسأل الله العفو والهداية للجميع..

كان وقت المغرب قد أزف.. نهضت للذهاب إلى المسجد.. عمل أرجو أن ينفعني عند لقاء الله.

الترحم على.. الظالمين

في رحلتي إلى الأردن حرصت على أن أتعرف على أهل البلد.. قبل البلد.. وكانت الزيارة الأولى.. ولن تكون الأخيرة إن شاء الله.

بعض من قابلت.. ما زال يرى في «صدام حسين» قائداً فذاً.. ذاد عن الإسلام وأعلى شأن المسلمين.

- لقد غلبتني الدموع.. بل البكاء عندما شاهدت هذا القائد يقاد إلى حتفه.. ويوضع حبل المشنقة حول رقبته.. رأيت الأمة بأجمعها تشنق.. والعزة تتدلى من أعواد المشنقة.

دهشت.. استغربت.. انزعجت.. وغضبت.. لما أسمع.

- وماذا عن جرائمه؟ وماذا عن ظلمه؟ وماذا عن تقتيله لأبناء شعبه، وانتهاكه لأعراض المسلمين في الكويت.. وفي كردستان؟!

- هذه لعبة أمريكية.

- وليكن.. من الذي نفذها.. أنا شخصياً لي تجربة مريرة مع جنوده.. ومن أهل الكويت من اعتقل.. ومنهم من استشهد.. ظلماً بقرارات صدام.. كيف تترحمين على هذا الظالم؟!

- ألم يمت مسلماً؟! والرحمة واجبة على كل مسلم؟!

إلى هذا آل النقاش بيني وبين «أم حسين» ونحن في طريقنا إلى مؤتة.. برفقة العائلة كلها.

- إن علماء أهل السنة.. إذا ذكر الظالمون قالوا: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ (هود) فإن الترحم والدعاء لا يستحقه إلا أهل الخير.. ولا سيما من العلماء وأهل الحل والعقد في المجتمع.. ألم يمتنع الرسول صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على مسلم، بل صحابي آمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم لأجل أنه مات وعليه «دين» حتى تعهد أبو قتادة بالدفع عنه، ثم صلى عليه الرسول صلى الله عليه وسلم؟!

ألم يمنع العلماء أهل الفضل والصلاح من الصلاة على العصاة.. كمن يقتل نفسه أو يموت مخموراً أو زانياً؟! وذلك عبرة للمسلمين بأن ارتكاب مثل هذه الذنوب يحرم المرء من دعاء الصالحين وصلاتهم عليه.. فيقولون: «صلوا على صاحبكم» فيصلي عليه عامة الناس لمجرد أنه مسلم.

أما إذا ذكر الظالمون، فإن العلماء لا يسبونهم، ولا يحبونهم.. وإنما يذكرون عموم قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ (هود).. ولا شك أن ذنب من قتل المسلمين، وافترى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وآمن بعقيدة حزب البعث ديناً ومنهجاً وعقيدة - لا شك أن ذنبه أعظم من شرب الخمر، ومن وقع في الزنا.

كان حديثي فيه حدة.. وشدة.. أراد أبو حسين أن «يلطف الجو»:

- ولكن معظم الشعوب العربية لا تعرف خبايا هذه الأمور، ولم تر من صدام إلا أنه قصف إسرائيل وروع أهلها، وأذل أمريكا.

قاطعته:

- هذا ليس بعذر ولا حجة، فإن الذي يعلم حجة على من لا يعلم، ومن كان جاهلاً بخبايا الأمور فليسأل وليتعلم، وإذا وضحت له الأمور ينبغي أن يرجع إلى الحق؛ لأن الله سيسأله يوم القيامة عن عقيدته هذه في الظالمين.

كنا في طريق متعرج صعوداً من البحر الميت إلى أعلى الجبل حيث مؤتة.. أصاب أحد الأطفال دوار.. توقفنا على جانب الطريق.. تعاملنا مع هذه الحالة الطارئة..

تابعنا السير.

كانت المناظر جميلة.. رغم خلوها من اللون الأخضر.. وهذا أول فرق بين جبال لبنان وجبال الأردن.. وبدأ الجو يميل إلى البرودة مع أحمرار الشمس وميلها نحو الغروب..

بلغنا مؤتة.. أخذنا مرطبات وفاكهة.. اتجهنا إلى عمان.. لينتهي بنا المطاف إلى عشاء في أحد مطاعم الوجبات السريعة، نزولاً على رغبة الأطفال!

كذلك قال ربك..

أتابع أحياناً حوارات متلفزة بين مسلمين ونصارى، بعضها محايد وأغلبها مفبرك للتهجم على الإسلام، وخاصة (أسئلة عن الإيمان) الذي يظن صاحبه أنه يسلك منهجاً علمياً يحاول من خلاله إثبات أن القرآن ليس كلام الله وأن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس رسول الله، وأظنه ينفع الإسلام من حيث أنه يريد أن يضره.

من الذين أستمتع بالاستماع لهم الشيخ (يوسف استس) بتلقائية وعفوية أسلوبه.. وتمكنه من كتاب الله وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم.. وبساطة طرحه مع عمق موضوعاته..

كنت أحدث صاحبي عن إعجابي بالشيخ (استس)..

- ولكنه يخاطب غير المسلمين.. أما المسلمون فلا يستفيدون من دروسه.. لم أتعجل الرد عليه.

- هل لي أن أسألك.. كم مرة استمعت إليه؟

- مرة واحدة.

- وكيف تسمح لنفسك أن تحكم من مرة واحدة.. أما أنا فاستمعت إليه لأكثر من عشرين جلسة.. متفرقة.. وعلى الأقل عشر متتابعات.

أقر صاحبي بخطئه..

- إذن أنت أَخْبَر..

ـ ذكر ذات مرة خصائص القرآن.. ككتاب.. وقارنه بأكثر الكتب البشرية تداولاً على مر الزمن.. وترك المشاهد يحكم بين كتاب مصدره الله.. وكتب بشرية.. بأسلوب بسيط متنوع علمي.. يصل الجميع..

ـ تذكرني «بأحد المشايخ» كان يتحدث عن الإسلام.. فقال: منهج الإسلام هو ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ ﴾ (مريم).

نظرت إلى صاحبي طالباً مزيداً من التوضيح.. تابع حديثه..

ـ الإسلام يريد أن يربي أناساً يؤمنون بهذا المنهج.. وهذه المقولة جاءت في كتاب الله في قصة زكريا ويحيى.. عندما قال: ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ (مريم).

وكذلك عندما قالت مريم: ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ (مريم).

وهذا القول من الله.. أمر تكوين.. ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ ﴾ (آل عمران: ٤٧)، وكذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النحل) وكذلك قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾ (يس).. أما القول الآخر من الله فهو قول شرعي.. مثل أمره الشرعي.. وقضائه الشرعي.. بمعنى أن يأمر الناس بالطاعات وينهاهم عن المعاصي..

وللمخلوق القدرة في اتباع أمر اللّه هذا أو قضائه هذا.. أما الأمر الأول.. والقول الأول ليس لأحد تغييره لأنه أمر كوني.. وقضاء كوني..

تابع صاحبي.. واستمر صمتي أستمع لشرحه..

- وهنا تختلط الأمور على بعض الناس.. ويزين لهم الشيطان.. أفكارهم فيخلطون بين القول الشرعي والقول الكوني.. ويقولون.. لو قال اللّه لنا اهتدوا لاهتدينا.. مع أن اللّه أمرهم بالهداية.. وحثهم عليها.. ورغبهم بها، بل وحذرهم من عاقبة عدمها.. إلا أنهم يخالفون كل ذلك لأنه أمر شرعي.. وقضاء شرعي.. ولو كان أمراً كونياً لما استطاع أحد أن يخالفه.. كما قال اللّه عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ (يونس)، وكذلك قال اللّه عز وجل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ (الأنعام).. وكذلك قال عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنعام).. وآيات أخرى كثيرة تبين أن هذه هي المشيئة الكونية.. لو أرادها اللّه لما وقع خلافها ولكن اللّه أراد أن يترك الاختيار للبشر وخلق فيهم القدرة على مخالفة أمره الشرعي وقضائه الشرعي ليحاسبوا عليه يوم القيامة.

حكايات ابن تيمية.. والصوفية

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية.. (قلت للأمير: أنا ما امتحنت هؤلاء لكن هم يزعمون أن لهم أحوالاً يدخلون بها النار وأن أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك.. وأنا قد استخرت اللّٰه سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل معهم أنا وهم.. ومن احترق منا فعليه لعنة اللّٰه وذلك بعد أن تغسل أجسامنا بالخل والماء الحار!!

قال الأمير: ولم ذاك (يعني الخل والماء الحار)؟..

قلت: لأنهم يطلون أجسامهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارنج وحجر الطلق وغير ذلك.. وأنا لا أطلي جلدي بشيء فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق.

فاستعظم الأمير جرأتي أن أدخل النار فقال: أتفعل ذلك؟

قلت: نعم.. قد استخرت اللّٰه وألقى في قلبي أن أفعله.. ونحن لا نرى ذلك ابتداء فإن خوارق العادات إنما تكون لأمة محمد صلى اللّٰه عليه وسلم المتبعين له باطناً وظاهراً لحجة أو لحاجة.. وهؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون (أنها من خاصتهم).. وجب علينا أن ننصر اللّٰه ورسوله صلى اللّٰه عليه وسلم بما نقدر عليه من أرواحنا وأجسامنا وأموالنا..

وكان التحدي.. يقول ابن تيمية ـ رحمه اللّٰه ـ:

وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الإزباد والإرغاء وحركة الرؤوس ونحو ذلك من الأصوات المنكرة المخالفة لما أمر به لقمان ابنه ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ۝١٩﴾ (لقمان).. فلما جلسنا.. وحضر شيخهم وشيخ آخر يسمى خليفة سيده أحمد.. فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة وإنا مجيبون إلى ما طلب من ترك الأغلال وغيرها من البدع ومتبعون للشريعة.

فقلت: أما التوبة فمقبولة عند الله ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ (غافر) هذه إلى جنب هذه فأخذ شيخهم ينتصر اللهم الأطواق.. وذكر أن وهب بن منبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابد وأنه جعل في عنقه طوقاً.

فقلت: ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا فنحن لا يجوز لنا أن نتبع موسى ولا عيسى (عليهما السلام) وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا.. وليس لأحد الخروج عن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم.

فقال ذلك الشيخ ورفع صوته.. نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها.

فقلت ورفعت صوتي.. الباطن والظاهر والجالس والمدارس والشريعة والحقيقة.. كل هذا مردود إلى كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فقال ـ ورفع صوته ـ نحن لنا الأحوال كذا.. وكذا.. وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها فقلت ـ ورفعت صوتي ـ أنا أخاطب كل أحمدي من مشرق الأرض إلى مغربها، أي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون، ومن احترق فهو مغلوب، ولكن بعد أن نغسل أجسامنا بالخل والماء الحار.

فضج الناس..

فقال شيخهم.. أنا وأنت نلف في نارية بعد أن تطلى أجسامنا بالكبريت.

فقلت: ثم؟

وأخذت أكرر عليه في القيام.

فمد يده يظهر خلع القميص.

فقلت: لا حتى تغتسل بالماء الحار والخل...

وقلت: أحضروا قنديلاً.. يوقد وأدخل أصبعي وأصبعه بعد الغسل.. ومن احترقت أصبعه فعليه لعنة الله.. فهو مغلوب.. فلما قلت ذلك تغير وذل.

ومع هذا.. فلو دخلتم النار ثم خرجتم.. ولو طرتم في الهواء.. لم يكن ذلك دليل على صحة ما تقولون.. فإن الدجال الأكبر يقول للسماء أمطري فتمطر وللأرض أنبتي فتنبت وللخربة أخرجي كنوزك فتخرج ويقتل الرجل فيمشي بين نصفيه ثم يقول له قم فيقوم.. فالعبرة ليست في خوارق العادات ولكن العبرة في موقف الرجل من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

التفسير العلمي.. والشرعي

ـ كل ما يحدث في الكون.. إما بتدخل البشر أو دون تدخلهم: الزلازل.. البراكين.. الفيضانات.. العواصف.. اعتدال الجو.. إخضرار الأرض.. كلها حوادث كونية.. وفي المقابل الحروب والأمراض.. الاضطرابات.. القتل.. يتدخل فيها البشر.. كل هذه الأحداث.. الكونية.. والبشرية لها تفسيران.. شرعي وكوني.

قاطعني:

ـ ليتك تستبدل هاتين الكلمتين.. هل نستطيع أن نقول: ديني.. وطبيعي.. أو فيزيائي؟!

ـ ليكن ذلك.

كنت وزميل العطلات ـ ذلك أننا لا نلتقي إلا أيام التعطيل عن العمل ـ نتمشى في المنتزه بعد صلاة العشاء.. تابعنا الحديث:

ـ هناك تفسيران.. أما التفسير الشرعي فنستند فيه إلى الآيات والأحاديث الصحيحة، والتفسير المادي نستند فيه إلى النظريات العلمية.. مثال ذلك: الكسوف.. والخسوف.. فإن الكسوف بالتفسير المادي أو العلمي: هو الظاهرة التي تحصل نتيجة وقوع القمر بين الأرض والشمس على خط مستقيم فيحجب الشمس.. والتفسير الشرعي: أن اللّٰه الذي خلق هذه الأجرام الثلاثة وسيّرها وفق نظام محكم وجعلها تصطف بحيث يذهب نور الشمس.. قادر على أن يذهب

نورها.. وسوف يكون ذلك عند قيام الساعة.. فاتقوا الله أيها الناس.. ولا تنسوا هذا اليوم.

ـ ولكن الناس بتفسيرهم العلمي يضعف عندهم التفسير الشرعي.

ـ هذا لضعف الجانب الشرعي لديهم.. وإلا فكل ظواهر الدنيا لها هذان التفسيران.. ولا تناقص.. دعني أضرب لك مثالاً آخر: (العقم).. ألم يكتشف العلم أسباب العقم المادية.. إما بسبب الرجل.. أو المرأة؟

ـ نعم.

ـ وهذا لا يلغي أن الله يرزق من يشاء الذكور.. ويرزق من يشاء الإناث.. ويرزق من يشاء الذكور والإناث.. ويجعل من يشاء عقيماً.. ومع ذلك فنحن مأمورون بعلاج (العقم).. والسعي للحصول على ذرية صالحة.. بالأدوية.. والأدعية.. أما إلغاء السبب الشرعي.. مقابل السبب المادي.. أو العكس.. فإنه لا يتوافق مع الشريعة.

ـ وهذا الذي يؤدي بالماديين أو يجعلهم يصلون إلى الجحود.. وأنه لا إله.. ولا آخرة.. ولا حساب.. وإنما هي حياة دنيا.. أكل وشرب وموت.. فحسب!

ـ صدقت.. أما المسلم فينبغي ألا يغيب عنه السببان.. ويتعامل مع كل ظاهرة من خلالهما.. دعني أضرب لك مثالاً آخر: المطر.. أصبح الجميع.. يستطيعون أن يتنبؤوا بزمان ومكان سقوط الأمطار.. بدراسة حركة الرياح.. ونسبة الرطوبة.. ودرجات الحرارة وغيرها..

ولكن تعال اقرأ قول الله تعالى في سورة النور: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾﴾ (النور).. والسحاب هو الغمام الخفيف.. يؤلف الله بينه.. ولم يقل: يجمع بينه.. وذلك أن التأليف أقوى وأمكن.. فيتراكم.. وأهل الأرصاد يقولون: سحب متراكمة.. وسحب متفرقة.. وسحب خفيفة لا تحمل مطراً.. فالسبب الشرعي: أن الله ينزل المطر لأسباب شرعية.. ويحبس المطر لأسباب شرعية أيضاً.. ولذلك لا ينبغي لمسلم أن يقول: «وما فائدة صلاة الاستسقاء؟ لأنه عرف الأسباب المادية.. ولا تناقض.. فمن أراد السقيا.. فليكف عن الذنوب وليكثر الاستغفار.. وليصل الاستسقاء.. والأمر بعد ذلك إلى الله.. يأمر السحاب.. ويهيئ الأسباب المادية فينزل المطر.

آيات التحدي

كنت في زيارة لديوان أحد الأخوان ـ وقلما أذهب إلى الدواوين ـ بانتظار العشاء أتى أحدهم من مجلسه وأخذ مكانه بجانبي.. عرفني بنفسه.

ـ أنا من المتابعين للفضائيات الإسلامية والنصرانية وتلك الناطقة باللغة الإنجليزية.. أشعر أنني أزداد علماً بمتابعة النقاشات التي تدور في قضايا الإسلام.

ـ وأنا لا أعلم عن هذه القنوات شيئاً.

ـ كنت استمع إلى الداعية يوسف أستس وهو يتحدث عن القرآن وشد اهتمامي طريقته في عرض إعجاز القرآن، يتحدث بمنطق اليوم وبلغة يفهمها غير المسلم مثل المسلم.. وذكر آيات التحدي ولكن لم يذكر نص هذه الآيات.

ـ لعلك تعني تلك الآيات التي تحدي فيها الله عز وجل المشركين أن يأتوا بمثل القرآن كقوله عز وجل: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (الإسراء).

وكقوله عز وجل: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (الطور).

ثم ازداد التحدي ليأتوا بعشر سور مثله.. في قوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ (هود).

وقوله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس).

وأعلم يا (بو محمد) أن هذا التحدي كان لأناس بلغوا من الأدب والبلاغة ومن علم الكلام القمة.. وهكذا معجزات القرآن تأتي بما يتقنه الناس.. فيعجزون عن معجزات الأنبياء.. هذه واحدة والثانية أن التحدي أن يأتوا بسورة واحدة.. أي سورة ولو بمقدار ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾.

سطر واحد!!! كيف يعجز فطاحلة اللغة وجهابذة الكلام أن يأتوا بسطر واحد مثل القرآن.. مع أنهم يكتبون أجمل الكلام وأعذب القصائد.. مئات.. بل آلاف الأبيات.. ثم يعجزون (مجتمعين) أن يأتوا بسطر واحد!!!

والثالثة: أن هذا التحدي باق إلى يوم القيامة ولكن من العقل أن يقول المرء.. إذا عجز أهل البلاغة والمتخصصون فيه أن يأتوا بسورة واحدة هل يتمكن الهواة والمتطفلون والأعاجم أن يأتوا بآية واحدة؟

كان صاحبي منصتاً.. قال وهو يختم كلامه قبل البدء بالعشاء.

ـ أعجبني أيضاً كلامه عن القرآن بأنه خلاف ما يكتب البشر.. لا تحتاج أن تبدأ من أوله، بل من حيث بدأت تصل إلى الآيات.. افتح القرآن واقرأ من حيث شئت.. لا تشعر بنقص ولا قطع ولا قلب للمعاني.. إنه كلام رب العالمين.. هيا لنشارك القوم العشاء.

بعد ارتكاب المعصية..

دعاني صاحبي لرفقته في زيارة قصيرة إلى البحرين. وافقته على أن نرجع في اليوم التالي.. غادرنا فجر الخميس.. صاحبي يصغرني بعشر سنين.. أشعر به أخاً أصغر أحياناً.. وأحياناً أخرى ابناً أكبر.. تحدثنا عن أمور كثيرة في الطريق.. كانت إحدى حوارتنا..

ـ لا أحد معصوم عن الذنب.. عدا الأنبياء بالطبع..

قاطعني..

ـ سمعت في الإذاعة ذات مرة شرحاً لقول الله تعالى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ (محمد) لا أذكر الشرح ولكن كان الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم.

ـ نعم.. ولكن عندما قلت لا أحد معصوم من الذنب عدا الأنبياء قصدت الذنب بمفهومه العام.. أما ذنب النبي صلى الله عليه وسلم.. فليس بذنب.. وإنما المعنى.. ما وقع فيه من خلاف الأولى.. كموقفه من أسارى بدر.. وتحريمه العسل على نفسه.. وغيرها.. وهذه ليست ذنوب.. بالمعنى المعلوم.. والتفسير الآخر.. والذي أميل له..

أنه إذا كان النبي يخاطب بالأمر أن يستغفر لذنبه.. فمن باب أولى كل أحد دونه.. والجميع دونه صلى الله عليه وسلم.. فلا يغتر أحد بدينه..

أعجب صاحبي بهذا الشرح.. أومأ برأسه مبتسماً.. وهذه حركته إذا أراد أن يظهر إعجابه.. تابعت حديثي..

ـ كلنا يقع بالذنب.. بمعنى المعصية.. ولكننا نفترق في موقفنا بعد الذنب.. المؤمن.. يستغفر.. يتوب.. يكثر من الحسنات.. يصلح ما أفسده الذنب.. والخاسر.. يفتخر.. ويجاهر.. ويجهز لذنب آخر.. والناس لا حصر لمواقفهم بعد الذنوب.. استدرك علي..

ـ ولكن.. دعني أتحدث عن نفسي.. لست بالملتزم بتعاليم الدين كما ينبغي.. فمعظم صلواتي في البيت.. ولكن.. قبيل الوقوع بالذنب.. وأثناءه.. يغيب كل شيء عني... لا أرى شيئاً.. ولا أسمع أحداً.. يحيطني الذنب من كل مكان.. حتى أقع فيه.. فإذا أفقت.. نظرت حولي.. أرى آثار المعصية.. أنظر في المرآة أرى شخصاً أحتقره.. أكرهه.. أستهزئ به.. بل ربما تحدثت إلى الذي في المرآة.. لائماً.. (أين رجولتك؟ أين مكانتك؟.. أين هيبتك؟ شهوة عابرة.. تجعلك تفقد عقلك.. واتزانك.. ورجولتك.. تجعل من نفسك أضحوكة.. للنادل الأجنبي.. أو.. الفتاة.. اللعوب.. اللذين.. دون شك سيتندرون بما فعلت أمام أصدقائهم).

وهكذا.. أتحدث إلى نفسي.. حتى أمقتها.. ولكن.. أرجع مرة أخرى وأنسى ما كان.. وربما وقعت في ذات الذنب مرة أخرى.. ولكن أحاول ألا أكرر ذات الأمر في ذات المكان.. مع نفس الأشخاص..

ـ هناك أمور كثيرة يمكن أن تمنع الإنسان من ارتكاب المعصية.. ولكن إذا وقع في الذنب.. ابتداءً.. تاب واستغفر ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً

﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ١٣٥﴾ (آل عمران).. ولا يجاهر.. ولا يفتخر.. ولا يتمادى. ولا يهون من الذنب.. ولا يدعو أحداً لمشاركته في الذنب.. ولا يخطط للذنب مرة ثانية..

وهناك أمور أخرى عدا الخوف من الله ورجاء الجنة ربما تمنع بعض الناس من ارتكاب المعصية مثل خوف عاقبتها في الدنيا.. والخوف أن تقع على أهله مصيبة بسبب ذنبه.. وربما الخوف من منع الرزق بسبب الذنب.. وكلها أسباب مشروعة.. ولكن الأول أعظم وأدوم..

استأذنني صاحبي.. في إشعال سيجارته.. التي لا يستطيع أن يستغنى عنها لأكثر من ساعتين.

المصيبة.. أن يعشق المرء الذنب.. ويظن أنه لا يستطيع أن يعيش بدونه.. سألني..

- وهل السبب.. (هوى النفس).. أم (إغواء الشيطان)!؟

- الشيطان تعهد بإغواء جميع بني آدم.. فيزين للجميع.. كل الذنوب.. والنفس الأمارة بالسوء تدعو إلى اتباع الهوي.. فإذا اجتمعا على شيء واحد هلك الإنسان.. والنفس عادة تدعو إلى ذنب بعينه.. والشيطان لا يهمه نوع الذنب. فينقل ابن آدم من ذنب إلى آخر.. إلى أن يهلكه..

مضارّ العلم!

ـ طلب العلم عبادة يثاب عليها الإنسان إذا أحسن.

ـ وكيف يحسن؟

ـ كما في العبادات جميعاً.. يبتغي بها وجه الله تعالى فيحقق الإخلاص فيها.

ـ وكيف يحقق الإخلاص فيها؟

ـ ينوي بها رفع الجهل عن نفسه.. وعن المسلمين.. ويدافع بعلمه عن دين الله.

ـ وكيف يمكن أن يضره علمه؟

هكذا أسلوب صاحبي.. (كيف؟)..

ـ العلم يضر صاحبه إذا ابتغى بعلمه عرضاً من الدنيا.. تصدر المجالس.. لقب (شيخ).. انتظار الناس حضوره.. رجوع البشر إليه... وإذا علم ولم يعمل بعلمه.. وإذا ظن أنه بلغ منتهى العلم فلا علم بعد علمه.. فاغتر.. ثم تكبر.

ـ هذا في العلم الدنيوي أم الشرعي؟!

ـ بل فيهما جميعاً.. ولكنه في العلم الشرعي أشد.. حتى في العلم الدنيوي ينبغي أن يستمر المرء في طلب العلم ولا يظن أن لا عالم بعده.. مثلاً.. ألا نزعم أننا بلغنا من العلم الدنيوي.. ما استطعنا به أن نطلع على أسرار أعماق البحار.. وأن نغزو الفضاء.. ونمسح جميع أرجاء الأرض؟

ـ بلى.. بلغنا من هذا العلم شيئاً بعيداً.

ـ فأين علمنا عن تحديد مكان يأجوج ومأجوج؟

استغرب صاحبي سؤالي:

ـ وهل يأجوج ومأجوج موجودون على الأرض؟

ـ هكذا يخبرنا ربنا في سورة الكهف.. عندما جاب ذو القرنين الأرض بلغ مكاناً.. (بين السدين).. ووجد قوماً اشتكوا له إفساد يأجوج ومأجوج.. فأقام لهم ذو القرنين الردم الذي حبسهم دونه.. وهذا الردم: لم يستطيعوا أن يظهروه.. ولا أن ينقبوه.. فهم قوم من ذرية آدم أعدادهم كبيرة جداً.. موجودون الآن ويخرجون في آخر الزمان عندما يأذن اللّه لهم.

لم تذهب آثار التعجب والحيرة عن صاحبي:

ـ كيف هم موجودون ولا نعلم مكانهم؟

ـ هم موجودون بصريح القرآن وصحيح السنة.. ولا نعلم مكانهم بواقع الحال.

ـ فأين العلم والتكنولوجيا التي دخلنا بواسطتها إلى أصغر خلية.. ووصلنا بها إلى أبعد كوكب؟!

ـ هكذا العلم.. أعطه كلك يعطك بعضه.. ومن ظن أنه علم فتوقف عن طلب العلم.. فهو جاهل.. وأصبح علمه ضرراً عليه بدل أن يكون نفعاً له.

«افعل الخير وانساه»!

تجاوزت عقارب الساعة العاشرة والنصف ليلاً.. رن هاتف المنزل.. سألت صاحبتي أن تجيب جازماً أن المكالمة لها.. استجابت لرغبتي متحدية.. لم تتحدث.. هزت سماعة الهاتف منتشية بالنصر:

- إنه لك.

أخذ صاحبي يحكي قصته عن تلك الليلة ونحن في طريقنا إلى مطعم «الفول والفلافل» في قلب العاصمة لتناول عشائنا الشهري!!

تابع صاحبي حديثه:

- لم أتجاوب مع صاحبتي؛ لأن المتحدث كان زوجة أخي تتحدث وقد غلبها البكاء.. طلبت منها الهدوء لأفهم حديثها.. «لقد احتجزوا أخاك «سالم» في تنفيذ الأحكام الجنائية.. بالفروانية».. لم أنجح في تهدئتها.

اتصلت بأحد الزملاء - يعمل في «الداخلية» لأستدل على مكان الحجز.. لبست الثياب الرسمية.. توجهت إلى المكان.. كان مظلماً.. ومغلقاً.. دخلت أحد المباني.. لم أجد أحداً.. ناديت رافعاً صوتي تدريجياً: «السلام عليكم».. لم يجبني أحد.. خرجت.. ذهبت خلف المبنى.. لاحظت أن السرداب منار.. بحثت عن الدرج المؤدي إلى أسفل.. فإذا باب حديدي موصد.. طرقته.. فتحت نافذة حديدية أطل منها شخص آسيوي.. طلبت منه الدخول.. غاب دقيقة ثم رجع وفتح لي.

كان صاحبي يتحدث إلي وكأنه يزيح هماً من صدره.. بقيت منصتاً:

ـ دخلت.. فإذا ثلاثة أفراد من الشرطة في غرفة توسطها مكتب صغير.. سألتهم عن أخي.. أكدوا وجوده.. وأرشدني الآسيوي إلى «محتجز» كبير.. حوى أكثر من عشرة أشخاص.. رآني أخي.. صافحته من وراء القضبان.. سألته عن السبب.. أصاب ولداً أثناء التدريب ـ وأخي مدرب كاراتيه ـ خطأ في عينه.. فقدم أهله شكوى.. وأهمل أخي الموضوع ولم يحضر التحقيق ـ أو جلسات المحكمة ـ فاعتبره القاضي هروباً من العدالة وقضى بحبسه أربع سنوات مع النفاذ.

توقفنا عند إشارة ضوئية.. سألني صاحبي إن كنت أريد مطعم «أ» أم «ب»؟ تركت الخيار له.. تابع حديثه:

ـ سألته عن رقم هاتف والد الطفل المشتكي.. أعطانيه.. أخبرته أنني سأهاتفه وأقدم له المبلغ الذي يريد ليتنازل عن القضية.. رفض أخي الفكرة.. ولكنني لم أعبأ باعتراضه، وكانت المفاجأة عندما انتهيت من طلب رقم الهاتف.. لقد كان محفوظاً في هاتفي تحت اسم «أسعد المحتاج».. ناديت أخي: انظر هل اسمه أسعد؟ قال: نعم.. قلت: يسكن في حولي؟ قال: نعم.. سجدت هناك شكراً لله.. أسعد هذا أعرفه منذ أكثر من ثمان سنوات.. يتردد علي دائماً يطلب المساعدة.. ولم أرده يوماً.. ولم أمنع له حاجة.. أنظر كيف سيتفاعل معي!

اتصلت بأسعد وضغطت زر السماعة الخارجية لأسمع أخي.. رد.. لم يخف استغرابه لاتصالي به. فهو الذي يتصل بي دائماً.. وهذه

هي المرة الأولى التي أطلبه.. وخاصة أن الساعة تجاوزت الحادية عشرة ليلاً!!

ـ هل لديك ابن اسمه حسين؟

ـ نعم.

ـ كيف حال عينه؟

ـ الحمد لله.. لقد عولجت بست غرزات، والحمد لله هو بخير.. ولكن ما الذي أدراك بأمره إن سمحت لي؟

ـ من الذي أصابه؟

ـ مدربه في النادي.

ـ أتعرف اسمه؟

وهنا انتبه «أسعد» إلى تشابه الأسماء.. فأعلمته أنه أخي.. فأصيب بالذهول.. واعتذر.. وأصر أن يحضر.. وبالفعل كان عندنا بعد عشرين دقيقة.. وتنازل صباح اليوم التالي.

قلت لصاحبي: لولا أنك صاحبي وأعرف أنك صادق لقلت: إنها حكاية من نسج الخيال لترغيب الناس أن يفعلوا الخير للآخرين دون انتظار الأجر منهم.

تعظيم الأماكن والأشياء

(بو حسين) صاحبي الأردني من مواليد الكويت.. اضطر للمغادرة مع غزو العراق للكويت.. لم يقطع اتصاله معي، وكل مرة نتحدث فيها يدعوني لزيارته في عمان.. قررت قضاء يومين عنده في طريق عودتي من أحد المؤتمرات.. أحب أن نذهب إلى الكهف الذي ورد ذكره في القرآن.. لأرى أصحاب الكهف السبعة.. وثامنهم كلبهم.

- هذه الأماكن - إن ثبتت - لا قيمة لها في عقيدة المؤمن من حيث التعظيم والتقديس.. وهذا قول الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ ﴾ (الحج) فالآية صريحة.. في تخصيص التعظيم لشعائر الله.. وشعائر الله هي ما شرعه الله عز وجل.. كتعظيم يوم عرفة.. فالمكان لا قيمة له.. قبل التاسع من ذي الحجة.. ولا بعد التاسع من ذي الحجة.. بل هو خير مكان وأشرف بقعة يكون المرء فيها يوم التاسع فقط.. والغار الذي تعبد فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه.. لا قيمة له مع أنه نزل فيه الوحي لأول مرة.. وذلك أن لم يرد في آية أو حديث فضل لهذا المكان.. مع أن هذه الأماكن ثابتة قطعاً.. ومعلومة.. فما بالك بأماكن مشكوك فيها أصلاً؟!

كنا في طريق صاعدة نحو منتصف الجبل.. وصاحبي خلف المقود.

- ولكن نزورها للعبرة.. وتعليم الأطفال القصة التي وردت في القرآن على أرض الواقع.

ـ وماذا عن الأماكن التي تحولت إلى مزارات يقصدها المسلمون من أقاصي الأرض للذبح عندها والتبرك بها؟!

ـ هذا لا ينبغي.

ـ هناك قاعدة جليلة في شرع الله: «باب سد الذرائع».. وذلك أن المرء يمتنع عن عمل ما لا لذاته.. بل خشية أن يجر فيما بعد إلى معصية.. فيغلق هذا الباب ابتداء.. في أحد متاحف تركيا هناك «عصا موسى».. يزعمون.. وسواء كانت حقاً عصا موسى أم لا.. فما قيمة الأمر.. فالعبرة ليست بالعصا.. بل الأمر من الله أن تنقلب ثعباناً.. أو تشق البحر.. وانتهى الأمر بذلك.

قاطعني:

ـ وماذا عن آثار قدمي إبراهيم ـ عليه السلام ـ عند مقام إبراهيم؟!

ـ مقام إبراهيم جاء ذكره في كتاب الله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة) فالمقام ثابت.. أي المكان الذي قام عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ وهو يبني الكعبة.. وكان ملتصقاً بجوار الكعبة فأخر في عهد عمر بن الخطاب ليتمكن الناس من الصلاة عنده.. أما آثار القدمين فسواء ثبتت أم لم تثبت فإننا لا نعظمها.. ولا نتبارك بها، بل نصلي عند المقام.. ولا نتمسح بما يحيط بالمقام.. فتعظيم الأماكن والأشياء والأيام.. عبادة.. لا ينبغي لأحد أن يشرعها.. بل الله عز وجل يأمرنا بتعظيم رمضان.. والعشر الأول من ذي الحجة.. والبيت الحرام.. والأشهر الحرم.. وخاصة عاشوراء.. لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عظمه.. قبل مقتل الحسين بستين عاماً.

القدس

بعد صلاة العصر.. يوم الخميس.. أتواصل مع خطيب مسجدنا، وربما خرجنا معاً حتى صلاة المغرب.

ـ انتقدني بعض الإخوة لعدم حديثي عن مخططات اليهود لضم المقدسات الإسلامية إلى التراث اليهودي والنوايا اليهودية لهدم المسجد الأقصى.

ـ ولماذا لم تتحدث عن هذه القضية؟! فإني أعلم أن للقدس مكانة في قلبك، وأنك من أكثر الناس دفاعاً عن قضايا المسلمين حيث كانوا، فكيف بالقدس؟!

سكت صاحبي قليلاً.. كأنما أرغمته على الكلام في أمر لا يحبه.

ـ المسجد الأقصى جزء من عقيدتنا.. ذكره الله في كتابنا، وهو ثالث مسجد لا تشد الرحال للعبادة إلا إليها، وأرض القدس جزء من بلاد المسلمين، اغتصبها اليهود ويجب على الجميع ـ شرعاً ـ العمل لاسترجاعها، ولكن ماذا تريد مني أن أخطب في الناس، أصرخ وأقول: أيها المسلمون إن اليهود فيهم.. وفيهم.. وفيهم! ما الغرابة في أن يعمل اليهود على هدم المسجد الأقصى؟ وما العجب في أنهم يريدون أن يمحوا المسجد الأقصى من الوجود؟! هذا هو المتوقع منهم، لم لا.. وهم الذين حاولوا قتل أشرف الخلق وأكرم البشر؟! هل الأقصى أشرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! كانوا وما زالوا وسيبقون يحاربون الله

ورسوله صلى اللّه عليه وسلم وكل شيء ينتمي إلى الإسلام، ولا غرابة في ذلك، ولكن العجب أن يظن المسلمون.. وخاصة أولئك الذين يعيشون حول المسجد الأقصى أن اللّه سينصرهم وهم يتقاتلون فيما بينهم، إذا كان اللّه عز وجل يقول لخير هذه الأمة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ (الأنفال)، فهل يعتقد هؤلاء، بل المسلمون في كل بقاع الأرض، أن اللّه سينصر أقواماً يتقاتلون ويأسر بعضهم بعضاً، ويخون بعضهم بعضاً؟! هل ينصر اللّه فئة كهذه وإن كانوا يصلون ويطلقون اللحى ويقرؤون القرآن؟! كلا واللّه، إذا كان الإخلال بأمر واحد من الأوامر العسكرية الدنيوية سبباً في نكسة المؤمنين وفيهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في أُحد، فما بالك بأقوام لم يجمعوا من أسباب النصر إلا الكلام، متفرقون.. متقاتلون.. يستعين كل طرف باليهود والنصارى والكفار والطوائف الأخرى ليقتل أخاه، كيف ينصرهم اللّه؟! بل الدعاء لهؤلاء بالنصر يخالف آداب الدعاء؛ لأنهم تخلفوا عن كل أسباب النصر، ليسوا كالبنيان المرصوص، وليسوا ممن توكل على اللّه حق توكله، وليسوا ممن أعد ما استطاع لينال نصر اللّه.

كان صاحبي يتحدث بحرقة، كأنما كان يخزن كل هذا الكلام منذ فترة، وها هو الآن يطلقه كله.. تابع حديثه:

ـ أنا إن تحدثت عن المسجد الأقصى فلن يعجب كلامي المتحمسين للجماعات المقاتلة حوله، ولن أقول إلا الحق الذي أدين اللّه به، إن المسجد الأقصى، مكان مقدس للمسلمين وسيبقى كذلك مهما دنسه اليهود، الكعبة ذاتها ضربت بالمنجنيق، وأزيل الحجر الأسود من مكانه، فكان

الناس يحجون سنوات طويلة ولا حجر أسود في الكعبة، ولكن عندما أتى من يستحق أن يسترجع الحجر الأسود ويحافظ على الكعبة، مكنه الله من ذلك، وكذا الحال في المسجد الأقصى سيبقى كذلك، وأسوأ، إلى أن يأتي من هو أهل ليحميه ويصونه من دنس اليهود، وقطعاً ليسوا الذين حوله اليوم.

أبو الخير

كلفني صاحبي بالاحتفاظ بهاتفه.. والرد على المكالمات بينما ذهب لقضاء أمر وبقيت أنا في المركبة أنتظره.. رن هاتفه..

- السلام عليكم.. أبو الخير..

- عليكم السلام.. أظن أنكم أخطأتم بالهاتف.. هذا ليس لـ(أبوالخير).

- أليس هاتف (بو عبدالله)؟

- نعم.

- هل أستطيع أن أخاطبه؟

- بعد عشر دقائق.. ولكن لماذا أسميته (أبو الخير)؟!

- هو فعلاً (أبو الخير).. مضت علي ثلاث سنوات وأنا أتعامل مع هذا الإنسان.. لم ألجأ إليه مرة.. فخذلني.. مرت علي أزمات وضائقات.. صحية.. مالية.. اجتماعية.. وفي كل مرة أجد عند هذا الرجل (الفرج).. بفضل الله تعالى.. على أية حال أبلغه أن (منصور) اتصل - وسأعاود الاتصال مرة أخرى..

انتهت المكالمة.. مضت دقائق.. حضر صاحبي وبيده حاجته التي أتى لحلها.. تابعنا السير.. بدأت الحديث..

– اتصل بك منصور.

– هذا الرجل حالته صعبة جداً ورغم كل الظروف التي مر بها.. كان صابراً.. مستعيناً بالله.. لا يشكو.. ولا يتذمر.

ـ يسميك (أبا الخير)؟

ابتسم صاحبي وهو ينظر إليَّ..

ـ قالها لك؟ كم مرة أخبرته ألا يناديني بهذه الكنية.. ولكنه يأبى.. أخبرته أن الذي يستحق هذا الدعاء بالخير.. هو صاحب المال الذي يبذل أمواله في قضاء حاجات المعسرين أما أنا فمجرد وسيط.. آخذ من هذا.. وأعطي هذا..

ـ ولماذا لا تحب هذه الكنية.. إنها جميلة.. والدال على الخير كفاعله.

ـ أولاً.. أشعر أن فيها تزكية.. لا أستحقها.. وثانياً.. أرى أن الخير كله بيد الله.. ولا أستحق أن ينسب الخير لي.. وثالثاً.. لست أنا صاحب الخير.. بل أحد المحسنين الذي تكفل برعاية هذه الأسر وألزمني ألا أذكر اسمه لأحد..

ـ أظن أنه لا بأس أن تنال لقب (أبو الخير).. الله تبارك وتعالى ذكر (الخير) في القرآن كثيراً.. و(الخير) لغة هو الحسن لذاته ولما يحققه من نفع أو سعادة والخير أيضاً.. المال الكثير.. في مثل قوله تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ ﴾ (البقرة) وأنت سبب لإيصال الخير

لهؤلاء المحتاجين.. فلك كأجر صاحب المال.. كما في الحديث.. واللّه سبحانه يجعل أناساً سبباً لقضاء حوائج الآخرين.. وأحسبك كذلك ولا أزكي على اللّه أحداً.

- إني أرجو ذلك.. وأسأل اللّه أن يعينني على طاعته في هذا الأمر.. ومع ذلك أحب أن يناديني بكنيتي.. لأن اللّه هو صاحب الخير المطلق وأخشى أن يكون من أسمائه!!!

- (الخير) ليس من أسماء اللّه الحسنى.. جاء في القرآن.. ﴿بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾﴾ (آل عمران).. وجاء ﴿وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ (المائدة) وجاء ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الأنعام).. نعم الخير المطلق بيد اللّه.. ولكن الخير ينسب للمخلوق أيضاً.. بمعنى ما يملك من مال كثير.. ومعظم آيات القرآن يذكر فيها (الخير) بمعنى أفضل.. كقول اللّه تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ (البقرة).. وقوله: ﴿وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ﴾ (البقرة) ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴿١٢﴾﴾ (الأعراف) وهكذا معظم آيات القرآن.

- رغم كل ما قلت لا أحب أن أكنى بـ (أبو الخير).. وأسأل اللّه أن يجعل عملي خالصاً لوجهه وألا يحبطه.. «وأعوذ باللّه من أن أشرك به وأنا أعلم واستغفره لما لا أعلم» (صحيح الجامع الصغير).

الأحلام والرؤى

(بو وليد) من رواد مسجدنا.. بين فترة وأخرى يأخذ بيدي ويصر أن أسير معه إلى منزله ليسقيني الشاي المميز عنده، يزعم أنه خلطه من مجموعة أعشاب لا يعرف سرها إلا هو.. تعلمها من رحلاته الكثيرة إلى أندونيسيا..

كنا في طريقنا إلى منزله..

- لقد رأيتك البارحة..

وسكت..

- أين رأيتني.. صليت العشاء.. ولم أخرج من البيت بعدها..

- رأيتك في المنام...

- لعله خير.. ولكن وقبل أن تسرد علي رؤياك وتطلب مني تأويلها.. دعني أحدثك بأمور عن الرؤيا..

- كأنك لا تريد أن تستمع للرؤيا أو تفسرها.

- بعد أن أحدثك.. سأستمع إلى كل ما تريد.

- هات ما عندك..

- الرؤيا من الأمور التي تمادى فيها كثير من الناس.. والواجب أن نقف مع الآيات والأحاديث التي تبين للمؤمن كيف يتعامل مع الأحلام.. ففي

الحديث عن أبي هريرة قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**إذا اقترب الزمان لم تكد تكذب رؤيا المسلم أصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة والرؤيا ثلاثة الصالحة: بشرى من الله عز وجل ورؤيا المسلم التي يحدث بها نفسه ورؤيا تحزين من الشيطان فإذا رأى أحدكم ما يكره فلا يحدث به وليقم فليصل**» (متفق عليه) فهذا الحديث يبين أن ليس للمؤمن أن يتأثر بكل رؤيا يراها وخاصة إذا كانت مما يكره أما إذا كانت خيراً فليستبشر وليفرح ولا يحدث بها حاسداً ولا جاهلاً بل يحدث بها الحبيب واللبيب.

قاطعني..

ـ وما هي القواعد العامة لتفسير الأحلام؟ وهل أستطيع أن أتعلم هذا الأمر وأصبح مفسراً للأحلام؟

ـ هناك آداب لتفسير الرؤيا.. سواء من رأى.. ومن يعبر.. أما الرائي فينبغي أن ينظر في حاله وهل هو من أهل الصلاح أم لا.. وهل هو صاحب سلطان أم لا.. وهل هو صاحب مال أم لا..

ـ ولماذا كل هذا؟!

ـ لأن الرؤيا الواحدة يختلف تفسيرها من شخص لآخر. والرؤيا التي يراها الرجل الصادق المتبع للسنة هي الأقرب للحق.. فقد كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسأل أصحابه «**هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا؟**» (مسلم).

أما الذي يعبر الرؤيا فينبغي أن تتوفر فيه أمور.. أولها التقوى والعلم الشرعي وأن يعبر الرؤيا على أحسن الوجوه ويجعلها خيراً ومنها أن يستقبل الرائي بقوله: «خيراً تلقاه وشراً توقاه وخيراً لنا وشراً لأعدائنا الحمد لله رب العالمين اقصص رؤياك».. وكذلك يجب عليه أن يعرف حال الرائي من الفقر والغنى والسلطة والنفوذ والأصل والأهل والمكانة بين الناس، وأن يمسك عن التعبير إن كانت شراً ويرشد الرائي إلى التوكل على الله والإيمان بالقدر والرضا وأن لا شيء يضر إلا بإرادة الله ولا شيء ينفع إلا بمشيئة الله.. فيرجعه إلى الإيمان والتوكل وعدم التطير (التشاؤم).

سألني مستغرباً:

ـ فكيف يفسر المعبرون الأحلام هذه الأيام بمجرد قراءة الرؤيا بالفاكس أو الرسالة القصيرة.. ويخبرون الناس بأنهم سينالون كذا ويحصل لهم كذا؟!

ـ هذا كله من التكسب التجاري اللا مشروع، وذلك لانتشار الجهل وقلة العلم وهذه التعابير كلها من ضرب التخمين الذي يصدقه عامة الناس.. وينبغي أن ينصح هؤلاء المعبرون بتقوى الله وعدم الخوض في تفسير الأحلام بدون علم فإن هذا من الكلام الذي سيحاسبون عليه يوم القيامة والمال الذي يكسبونه من المال الذي سيسألون عن مصدره يوم القيامة.. فإنهم يفسرون الأحلام دون اتباع القواعد الشرعية المعلومة لدى كافة طلبة العلم..

ملك سليمان

مع اقتراب فصل الصيف.. أخذت ساعات النهار تطول.. ووقت صلاة العصر يزداد حرارة.. بعد الصلاة اقترب مني (بو فيصل) ليشاركني والمؤذن حديثنا.. وكل منا في مجلسه الذي صلى فيه..

ـ هل ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم أراد أن يربط جِنّاً في المسجد فلم يفعل لأجل سليمان ـ عليه السلام؟

ـ نعم.. والحديث في البخاري.. «إن عفريتا تفلتّ علي البارحة ليقطع علي الصلاة فأمكنني الله منه فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخي سليمان: رب هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي.. فرددته خاسئاً»..

استدرك (بو محمد) حديثي..

ـ نعم لقد آتى الله سليمان ملكاً لم يكن لأحد من بعده.. فلقد سخر له الريح.. وأسال له النحاس وسخر له الجن يعملون له ما يشاء.. وكان يعرف لغة الطير والدواب.. وهذا الملك آتاه الله إياه ولم يكن لأحد من بعده..

سأل بو فيصل.. وقد تربع وأظهر استمتاعه بالحديث..

ـ وماذا عن قوله تعالى: ﴿وعلمنا منطق الطير﴾.. من هم؟

ـ أجاب (بو محمد).. وهو أحفظ مني لكتاب الله..

- هذه من سورة النمل ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾.. فلقد ورث سليمان من أبيه داوود الملك والنبوة.. فكان ملكاً نبياً وعلم الله سليمان منطق الطير.. ومع أن ملك سليمان كان (من كل شيء).. إلا أنه تميز بالريح تحمله مسيرة شهر.. بساعة.. لكنهم لا يعلمون شيئاً عما يدور في السماء.. فالغيب لا يعلمه إلا الله وحده: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (النمل).

الجن كانت تعمل له (كل شيء).. كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾ (الأنبياء).. وكذلك في سورة سبأ: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ (سبأ).

أردت أن أنبه إلى مسألة في العقيدة..

- ومع أن الجن كانت تعمل (كل شيء) لسليمان.. وكانت مسخرة له لا تملك أن تخرج عن أمره.. وعندما أراد أن يحضر عرش بلقيس: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ (النمل).. مع كل هذه القدرات إلا أن الجن لم يكونوا يعلمون الغيب.. فإن سليمان مات وهو متكئ على عصاه.. وبقي فترة من الزمن ميتاً.. والجن تعمل ما اعتادت أن تعمل من أمور رغماً عنهم.. إلى أن أكلت دابة الأرض منسأته.. فخر من مكانه.. ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ

ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ (سبأ)..
فالجن يعلمون أنهم لا علم لهم بالغيب.. وكل ما يستطيعون عمله هو الإخبار عن الماضي أو الحاضر الغائب في مكان آخر.. أما المستقبل فلا يملكون منه شيئاً.. وكانوا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم يستمعون إلى خبر السماء.. وبعد أن بعث صلى الله عليه وسلم جعل الله للسماء حفظة.. تمنع الجن من الاستماع إلى أخبار السماء.. ومن يسترق السمع يرمى (بشهاب ثاقب) يحرقه.. ولا يملك الجن إلا (التخمين) بما يدور في السماء.. فالغيب لا يعلمه إلا الله وحده..
﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (النمل).

السحرة.. كفرة

هاتفتني إحدى قريباتي بعد انقطاع استمر أكثر من ثلاثة أشهر.. كانت قبلها على اتصال يومي معي لحل بعض المشاكل الأسرية.. انتهت بالطلاق.. استجبت لدعوتها لشرب الشاي الأخضر بعد صلاة العشاء..

ـ دعني أحدثك عن آخر ما فعلت...

أبديت اهتمامي ورغبتي للاستماع وأنا أرتشف الزعتر.. بدأت حديثها..

ـ عرضت علي إحدى صديقاتي أن أزورها لرؤية شخص من دولة خليجية لديه القدرة على التعامل مع العين والجن والسحر وغير ذلك من أمور غيبية.. قبلت الدعوة.. كان الرجل مستعداً لزيارتي.. بادرني بالسؤال عن اسمي واسم أمي.. أجبته.. فأخذ يحدثني عما أمر به من ضيق.. ومشاكل.. وأمور كثيرة كلها صحيحة وواقعة.. عرضت علي صاحبتي أن أصطحبه لمنزلي.. لم أتردد في تنفيذ هذه الفكرة.. اشترطت وجود أحدهم لا لأني خائفة ولكن ليطمئن قلبي.

تابعت قريبتي حديثها وأنا أستمع ولا أزيد عن إيماءة أو هزة رأس مظهراً اهتمامي.

ـ بالفعل حضر «الشيخ» إلى منزلي.. وأول ما ابتدأ به الحديقة الخارجية نقب تحت الشجيرات.. استخرج مسامير.. بعضها مربوط..

وبعضها متناثر.. وأخبرني أن منزلي فيه من العمل والسحر ما فيه وأنه سيعمل ما يستطيع «لتنظيفه».. طلب مني أن أحضر له دجاجة سوداء.. وديك.. صبيحة الخميس..

وحيث أني لا أعرف شيئاً عن الدجاج والديكة طلبت منه أن يأتي معي بصحبة ثالثتنا إلى سوق الدواجن ليشتري ما يشاء وبالفعل.. ذهبنا.. واختار دجاجة سوداء وديكاً.. دفعت الثمن ثم ذهبنا إلى «الحواج».. اشتري منه كمية من (البان).. وكافور.. وأشياء أخرى دفعت ثمنها.. وذهبنا إلى المنزل كنا هناك قبل الظهر بساعة..

طلب مني أن أمسك الدجاجة السوداء بيدي.. ثم غطاني والدجاجة بقماش.. وأخذ يقرأ ويرتل أشياء لم أفهم معناها.. باضت الدجاجة.. بيدي.. انتهى من تراتيله أزاح القماش.. أخذ البيضة.. وكانت الدجاجة قد نفقت.. كسر البيضة فإذا بها مادة سوداء.. قال: (هذا جزء من السحر قد انتهى).. ثم أخذ الديك وذبحه عند باب المنزل.. ورمى الدجاجة والديك في القمامة.. أردت أن أسأل..

ـ قبل أن تقاطعني.. دعني أذكر لك أنه لم يطلب مني درهماً واحداً مقابل كل هذا.. ولم أعطه نقوداً.. وأخيراً قام بتبخير المنزل بدخان البان وأشياء أخرى.. ورش ماء الورد المخلوط بالمواد التي اشتراها من «الحواج» في أماكن مختلفة في المنزل.. وأخبرني أن منزلي فيه شيء مدفون مع الأساس ومن الأفضل لي أن أنتقل منه وأبيعه أو أؤجره.

ـ اسمعي يا أختاه.. هذا الرجل.. يتعامل مع الجن.. وربما كان

ساحراً.. وعقيدتنا أنه مهما قال.. أو فعل فكل عمله باطل.. وربما يكون من الكفر.. وليتك لم تأت به فإن ضرره أكبر من نفعه.. وهؤلاء الناس دجالون.. يعبدون الجن من دون الله.. وكما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾ (الجن: ٦).

استنكرت قريبتي وصفي للرجل الذي جاءت به ليقرأ من منزلها أنه دجال يتعامل مع الجن.. وأن السحر كفر.. والساحر حكمه ضربة بالسيف..

- ولكن ما قاله صحيح.. أنني أمر بأزمة.. وأشعر بضيق.. وأن بيتي.. فيه «دفن».. وأخرج مسامير.. وباضت الدجاجة وهي في يدي.. بيضة كلها سواد..

قاطعتها.. دعينا نأخذ هذه الأمور واحداً واحداً..

أولاً: لا يلجأ الإنسان «المرتاح» إلى هذه الأساليب.. فإخباره لك أنك متعبة وفي أزمة.. لا شيء.. وربما بعضهم يخبرك بأكثر من ذلك.. كاسم زوجك وأبنائك.. وأين تسكنين.. وربما حتى نوع المركبة التي تستخدمينها.. وذلك أن الجن يعلمون ما مضى.. وهؤلاء يشركون بالله ويستعينون بالجن لإخبارهم بهذه الأمور فيظن الناس أنهم (ينفعون أو يضرون)..

وأما المسائل التي استخرجها من الحديقة.. فأهل السحر يخرجون أكثر من ذلك ألا ترين أنهم يخرجون الأرانب الحية من القبعة.. والحمام يطير من داخل أكمامهم.. وبعضهم يجعلك ترين فيلاً ضخماً.. أو دبابة..

تختفي من أمام عينيك.. وتبين بعد ذلك أن كل هذه الأعمال مجرد «خدع» يوهم من يقوم بها الآخرين أنها حقيقة.. وهي مجرد خدعة تافهة إذا عرفت سرها.. وأظن.. بل أنا على يقين أن صاحبك هذا هو الذي دس المسامير وأخرجها أمامك!!! كما يفعلون في السيرك..

ـ وهكذا كل ما فعل وما أخبر.. فالمؤمن لا ينبغي أن يلجأ إلى مثل هؤلاء.. وينبغي أن يعتقد جازماً.. يقيناً.. أن لا شيء ينفع ولا يضر من دون الله.. فيلجأ إلى الله عز وجل.. ويستعين بكتاب الله وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.. وفي ذلك غنى عن هذه (الشركيات).. وكما قال الله تعالى عن السحرة.. ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ﴾ (البقرة).. وقبلها وصفهم فقال عز وجل في نفس الآية.. ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ (البقرة).. وجاءت السنة بضرب عنق الساحر والساحرة..

قاطعتني..

ـ ولكنه لم يأخذ شيئاً.. لا مال ولا هدية.. ولا أي شيء!!!

ـ يكفيه أن زميلتك الثرية استدعته من بلده.. وحجزت له تذكرة على الدرجة الأولى وهيأت له الإقامة.. ولم يأخذ منك شيئاً ولكني أجزم أنه أخذ من غيرك ولن يغادر البلد إلا وقد جمع مبلغاً طائلاً من المال.. وأظنه عندما سمعك تقرئين آية الكرسي.. تردد فيها وأنك لست من أولئك الجهلة الذين يركضون وراء كل ناعق.. ويسمعون كلام كل دجال.. لم يجد سبيلاً إلا أن يحسن صورته بألا يطلب منك شيئاً.. عدا ثمن

الدجاجة والديك والبخور والبان التي اشتريتها له.. أليس كذلك؟!

ـ هذه ليست بشيء.. لم تتجاوز العشرين ديناراً..

ـ العبرة ليست في صغر المبلغ أو كبره.. العبرة ألا نصدق هؤلاء ولا نستعين بهم.. فالعرّاف والكاهن من أتاه.. «**لم تقبل منه صلاة أربعين يوماً**» (مسلم).. أما «**من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**» (السلسلة الصحيحة).

ـ المؤمن يستعين بالله.. وإذا أرد أن يرقي أو يسترقي فبآيات الله والأدعية الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ويعلم أن الذي يملك النفع والضر هو الله وحده لا أحد سواه سبحانه وتعالى.. حتى من يرقي بالآيات والأحاديث الصحيحة يخبر المسترقي بألا يعتقد النفع والضر في شيء غير الله.. وما هو إلا سبب.. حتى لا يتعلق قلب المؤمن بمخلوق.

حديث «قرن الشيطان»

من الأمـور التي تبقى تشغل تفكيري حتى أحلها أن أسمع حديثاً ولا أعرف مدى صحته.. أو معناه.. ومن هذه الأحاديث.. حديث «قرن الشيطان».. سألني عنه أحد الأصحاب في مسجدنا.. استعنت بحاسوبي.. فأخرجت كل الأحاديث التي ورد فيها:

- **«ألا إن الفتنة هاهنا، من حيث يطلع قرن الشيطان»** (متفق عليه).

- **«الإيمان يَمانٍ.. والفتنة هاهنا وهاهنا يطلع قرن الشيطان»** (متفق عليه).

- **«اللهم بارك لنا في مكّتنا.. اللهم بارك لنا في مدينتنا.. اللهم بارك لنا في شامنا.. وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مدّنا، فقال رجل: وفي عراقنا.. فأعرض عنه فرددها ثلاثاً كل ذلك يقول الرجل: وفي عراقنا.. فيعرض عنه.. ثم قال: بها الزلازل والفتن وفيها يطلع قرن الشيطان»** (السلسلة الصحيحة).

- **«ألا إن الفتنة هاهنا، ألا إن الفتنة هاهنا. قالها مرتين أو ثلاثاً. من حيث يطلع قرن الشيطان.. يشير بيده إلى المشرق،** وفي رواية: **العراق»**.

- **«اللهم بارك لنا في شامنا، وبارك لنا في يمننا، قالوا: وفي نجدنا، قال: اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا، قالوا: وفي نجدنا، قال: هنا الزلازل والفتن ومنها يخرج قرن الشيطان»**.

- «**رأس الكفر هاهنا من حيث يطلع قرن الشيطان، يعني المشرق**» أصله في البخاري ومسلم.

- وكان صلى اللّه عليه وسلم على المنبر وأشار إلى جهة مسكن عائشة - رضي اللّه عنها - (المشرق).. «**هاهنا الفتنة من حيث يطلع الشيطان**».

- «**الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان، فإذا ارتفعت فارقها، فاذا استوت قارنها، فإذا زالت فارقها، فإذا دنت للغروب قارنها، فإذا غربت فارقها**» ونهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الصلاة في تلك الساعات. (صححه الألباني)

أما قرن الشيطان. فقال العلماء فيه:

- للشيطان قرن حقيقة.

- رجال الشيطان وأعوانه وما يستعين به على الإضلال.

- وقيل: إن الشيطان يقرن رأسه بالشمس حين تشرق ليقع سجود عبدتها له؛ ولذلك جاء النهي عن الصلاة عند شروقها وغروبها.

- كان أهل المشرق يومئذ أهل كفر، فأخبر الرسول صلى اللّه عليه وسلم أن الفتنة تكون من تلك الناحية.

- الفتن كانت من جهة المشرق.. «فتنة عثمان - صفين - الجمل - كربلاء».

- ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق.. وليس «نجد» المعروفة الآن.

ـ «نجد»: كل شيء ارتفع وعكسه «الغور».. ومن توهم أنه اسم مكان مخصوص فقد أخطأ.

ـ دعاؤه صلى الله عليه وسلم للشام.. أي لأهل الشام.

ـ قرن الشيطان.. أمة تعبد الشمس.

ـ نسب الطلوع لقرن الشيطان مع أن الطلوع للشمس؛ لكونه مقارناً لها.

ـ «العراق».. بلاد معروفة، وتؤنث وتذكر، وسميت بذلك؛ لتواشج عراق النخل والشجر فيها.. أو لأنه استكف أرض العرب، أو سمي بعراق المزادة لجلدة تجعل على ملتقى الجلد إذا خرز في أسفلها؛ لأن العراق بين الريف والبر، أو لأنه على عراق دجلة والفرات، أي شاطئهما، أو معرّبة من الفارسية ومعناه كثرة النخل والشجر.

وحي الشّيطان!!

رغم أن أحدهم لا يفقه شيئاً في دين اللّه.. ورغم أنه أبعد ما يكون عن العبادات والطاعات.. إلا أنه يجادل في الأحكام الفقهية.. والتفسير.. ويستند إلى اللغة العربية.. ولديه منطق يبهر به بعض الناس..

ـ أنا لا أفهم لم لا يترك هذا الحديث في الدين.. بل والجدال فيه.. ويكون صادقاً مع نفسه.. إنه لا يتبع شرع اللّه ولا يريد تطبيقه..

ـ هذا يريد أن يجعل الناس كلهم مثله.. ويحسب أنه يحسن صنعاً.. وبصراحة أنا أشفق عليه.. ذلك.. لأن جهله مركب.. فالجاهل.. من الممكن أن يتعلم.. أما هذا.. فهو جاهل.. لا يقر بجهله.. بل ويظن أنه عالم.. ولم يدر أن الشيطان هو الذي يغويه ويوحي إليه!!

ـ وهل يجوز أن نقول إن الشيطان يوحي!!

ـ اللّه سبحانه وتعالى هو الذي قال.. ولم أقل أنا.. ألم تسمع قول اللّه تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ (الأنعام).. وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾ (الأنعام).. فهناك شياطين من الإنس كما هناك شياطين من الجن.. يوحون إليهم بالباطل.. وجاء في الخبر أن عبداللّه بن عمر بلغه أن المختار (ابن عبيد) يوحى إليه.. فقال: صدق.. ألم يقل اللّه تعالى: ﴿يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾.. أما الآية الأخرى فنزلت بعد تحريم أكل الميتة.. ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ

ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ (الأنعام:) فمن وحي الشيطان لأعوانه.. ها أنتم تأكلون ما تذبحون.. فلم لا تأكلون ما يذبح الله عز وجل (الميتة)؟.. وهكذا يكون وحي الشيطان يقول لأعوانه في الربا.. ﴿إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ﴾ (البقرة: ٢٧٥).. هذه المعاملات فيها فوائد.. وتلك فيها فوائد.. وربما غيرتم المسميات.. فقلتم.. (مرابحة).. وقلتم.. (تورق).. وقلتم (بيع الأجل).. وكلها ذات الشيء في النهاية.. والمؤمن لا يجد لهؤلاء وغيرهم جواباً خير من قول الله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ﴾ (البقرة).. فالذين يجادلون في آيات الله كثيرون.. وشياطينهم هم الذين يعينونهم لإيجاد (منطق).. فيما يقولون.. والمؤمن يعلم أن سبب جدال هؤلاء هو ضعف إيمانهم أو انعدامه.. فينبغي أن يرجع دائماً إلى رد أقوالهم بما ردها الله عز وجل به.. ﴿قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ (البقرة).. فالحرام.. ما حرم الله.. والحلال ما أحل الله.. أما محاولة إقناعهم بأسلوبهم.. فشبه مستحيل.

ـ وهذا الذي (يوحي إليه الشيطان) هل يعذر بين يدي الله؟!

ـ بالطبع لا يعذر.. فالشيطان يحاول أن يغوي الجميع.. ويوحي للجميع.. ألا يحدثك الشيطان.. أن لا داعي لصلاة الفجر في جماعة.. فأنت مرهق.. ووقت صلاة النائم (متى استيقظ) ألا يحدثك الشيطان.. بأمور فيها تقصير عن طاعة الله.. أو تساهل في معصية الله.. فالمؤمن يرد هذا الإغواء.. والفاسق يستجيب لهذا الإغواء ويتبناه ويستمر فيه.. ويجادل عنه.. ويوم القيامة.. يتبرأ منه الشيطان.. ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا

قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ (إبراهيم).. فلا عذر لأحد استمع إلى وحي الشيطان أو استجاب لإغواء الشيطان، كل أحد مسؤول عن عمله.. يحاسب عليه.. ويجازى.. إن خيراً فخير.. وإن شراً فشر.. لا اتباع الآباء عذر.. ولا تفشي الفاحشة عذر.. ولا إغواء الشيطان عذر..

نسأل الله العصمة.. ونعوذ به من شياطين الإنس والجن.

أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

حدثني صاحبي عن خوارق لأشخاص إلتقاهم في رحلته الأخيرة لمصر.. كان يتحدث بانبهار.. وكيف أن هؤلاء بلغوا من الإيمان درجة أجرى الله لهم أموراً خارقة للعادة.. سألته..

- وكيف أحوالهم في اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم؟

- لا أدري.. فإني لم أمكث معهم سوى نصف نهار.. صليت معهم المغرب فقط.

- هل كانت لهم أذكار خاصة قبل الصلاة أو بعدها.. هل علقوا في أعناقهم أشياء.. أم تراهم إلتزموا السنة في الأذكار والصلاة.. تردد صاحبي.. وكأني سألته عما يكره..

- بصراحة استنكرت منهم بعض الأمور.. مثل الذكر مع هز الرأس وقوفاً.. ومثل الأذكار بعد العصر إلى المغرب مع الدفوف.. ولكن ما رأيته بأم عيني.. أبهرني.. وجعلني لا أشك في إيمانهم وأنهم من أولياء الرحمن!!!

أزعجني استنتاجه هذا..

- أتعرف (مسيلمة الكذاب))؟!

- بالطبع..

- لو قرأت عنه بالتفصيل لعلمت أنه كان يحصل له من خوارق العادة

الشيء الكثير وكذلك (الحارث الدمشقي) الذي ادعى النبوة زمن عبد الملك بن مروان فإن السلاح كان لا ينفذ فيه.. وكان يمسح على الرخامة فتسبح مع الماء وكان يري الناس رجالاً وركباناً في الهواء ويقول: هؤلاء ملائكة وعندما أمسكه المسلمون وأرادوا قتله طعنه الطاعن فلم ينفذ فه فقال له عبد الملك بن مروان: إنك لم تسم الله.. فسمى الله فطعنه فقتله.. وكذلك (الأسود العنسي) كان يخبر بالمغيبات.. وهذه كلها أحوال شيطانية.. لماذا؟ لأن أصحابها لم يكونوا متبعين لهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.. وأتوا ما يخالف شريعة الله.. سواء في العبادة أو في العقيدة.. وفي المقابل.. كان (خبيب بن عدي) أسيراً عند المشركين وكان يؤتى بعنب يأكله ويراه المشركون وليس في مكة عنبة واحدة.. و(عامر بن فهيرة) قتل شهيداً فالتمسوا جسده فلم يجدوه ورأى عامر ابن طفيل جسده يرتفع إلى السماء. و(أم أيمن) خرجت مهاجرة إلى الله ورسوله وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش وكانت صائمة فلما كان وقت الفطر سمعت حسا على رأسها فرفعته فإذا دلو فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها و(سفينة) مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الأسد أنه مولى رسول الله وأنه تاه الطريق.. فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده. و(البراء بن مالك).. كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه.

وأخبار هؤلاء وغيرهم كثيرة.. فالعبرة ليست بخوارق العادات وإنما بحال من تقع له.. فأولئك.. (أولياء الشيطان).. وهؤلاء (أولياء الرحمن) ولكل منهما خوارق.. أولئك بالاستعانة بالجن وهؤلاء كرامة من الله..

ـ ولماذا تقع مثل هذه الأمور؟!

ـ تقع امتحاناً.. وفتنة.. وكرامة.. وخوارق الشيطان دائماً تعطل بذكر الله عز وجل.. وقراءة آية الكرسي.. أما كرامات الله فتزداد بذكر الله عز وجل.. وكانت الكرامات في عهد التابعين أكثر منها في عهد الصحابة وذلك أن الكرامة تأتي أحياناً لتثبت إيمان أحدهم أو للحاجة إليها مع انقطاع الأسباب.. مثل ما حصل لجيش المسلمين في فتح البحرين حيث ساروا على الماء.. فالعقيدة بالنسبة لخوارق العادات هي.. أنها تحصل.. وتكون أحياناً أحوالاً شيطانية.. وأحياناً كرامات ربانية.. فلا يغتر المرء بمن تظهر له هذه الخوارق ولا عبرة فيها. وإنما العبرة في اتباع كتاب الله وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.. والاتباع.. والوقوف على سنته.. والعمل بشريعته.. فمن أطاع الله ورسوله في الظاهر والباطن فإنه من أولياء الله وإن لم تظهر له كرامة.. ومن عصى الله ورسوله.. فإنه من أولياء الشيطان وإن قلب الرمل ذهباً..

الذنب.. درجات

ـ القاعدة العامة: الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، أليس كذلك؟

ـ عموماً.. نعم.. ولكن هناك تفصيل؛ فالحسنات تضاعف إلى أضعاف أكثر من عشرة في بعض العبادات.. مثل الصدقة، وإلى أجر لا يعلمه إلا الله مثل الصيام، وإلى أضعاف غير محددة في بعض الأماكن مثل المسجد الحرام، وبعض الأزمنة مثل ليلة القد، وأيام رمضان، والعشر الأول من ذي الحجة.

ـ والذنوب كذلك؟

ـ نعم.. فمثلاً الذي يشتم مسلما في يوم عادي ذنبه ليس كذنب من يشتم في رمضان، وليس كذنب من يشتم في عرفات يوم عرفة، وليس كمن يشتم في بيت الله الحرام عند الكعبة.. الذنب في هذه الأماكن والأزمنة أعظم.

كنا في زاوية بالمسجد بعد صلاة عصر السابع عشر من رمضان، كانت آثار الصيام ظاهرة في حديثنا وهيئة جلوسنا.

ـ هل الذنب يضاعف إذاً؟

ـ كلا.. لا يضاعف ولكن الذنب نفسه وزره أكبر، كما قلت الشتيمة ذنب واحد، ولكن هذا الذنب الواحد وزنه أكبر لو كان في المسجد الحرام

في رمضان.. منه في مكان آخر ووقت آخر، وكذلك شتم الوالدين أعظم من شتم الإنسان الغريب مع أن الذنب واحد ويكتب معصية واحدة لا تضاعف، ولكن هذه المعصية الواحدة أعظم في حق الوالدين منها في حق الآخرين.. ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾ (الأعراف).

- لسنوات طويلة.. لم أكن أعرف كيف أربط بين هذه التساؤلات.. فجزاك الله خيراً.

- الحمد لله الذي وفقنا لهذا.

القلب النقي

ـ لا شك أن أعمال القلوب أعظم من أعمال الأبدان.. فالنية مثلاً محلها القلب.. «**إنما الأعمال بالنيات**» (البخاري).. والتقوى مكانها القلب.. «**التقوى.. هاهنا.. التقوى هاهنا**» (الترمذي صححه الألباني)، وأشار إلى قلبه.. الله ينظر إلى ما في القلب.. كما أن القلب أساس الصلاح.. إذا صلح صلح سائر الجسد.. كذلك هو أساس الضلال.. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٥﴾ (الصف).

ـ أراك لا تفتأ تذكر أهمية القلب..

ـ نعم.. ولا أظنني أوفيت الموضوع حقه.. لذا لزم المرء أن يصلح قلبه (باطنه).. أكثر مما يصلح بدنه (ظاهره).. فالاختبار الحقيقي لما في القلوب.. ﴿۞ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ١٠﴾ (العاديات) ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ٥١﴾ (الأحزاب).. ﴿وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ (آل عمران).

كنت ونسيبي وحدنا بانتظار حضور الباقين لاجتماعنا الأسبوعي في منزل الوالدة.. وعادة ما أكون أول الحاضرين.. والمغادرين.. ذلك أنهم يتمتعون بالسهر.. ولا أطيقه..

ـ وكيف للمرء أن يصلح قلبه؟!

ـ يبدأ الأمر باليقين بأن أعمال القلب هي الأساس ومن ثم تشخيص

ما في القلب من نقاط ضعف.. ونقاط قوة.. ثم التسلح بالعلم والعمل.. فالعمل دواء الشهوات.. والعلم دواء الشبهات ثم الدعاء دائماً واللجوء إلى الله ليمن بصلاح القلب.

ـ رغم أني لا أحفظ كثيراً من القرآن إلا أن بعض الآيات ترسخ في ذهني ولو سمعتها مرة واحدة.. مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ (الحجرات).

ـ نعم.. هذه الآية من سورة الحجرات.. ويوم أحد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا اللهم من الراشدين**» (مسند أحمد، صححه الألباني)، فمن فضل الله ومنته على عباده أن حبب إلى نفوسهم الإيمان وحسنه في قلوبهم.. فكان القلب السليم دليل البر والإثم.. «**والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس**» (مسلم).. فمن دلائل الإيمان إنكار القلب للمنكر وإقراره للخيره.. وهو أضعف درجات الإيمان..

وفي سورة المجادلة.. بعد أن ذكر الله عدم موالاة المؤمنين للكافرين ولو كانوا آباءهم.. قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ (المجادلة).

ـ قاطعني.. مازحاً..

ـ إذاً.. لا نلوم من لا يلتزم أوامر الله ثم يقول: «الإيمان في القلب»!!

- بالطبع نلومه.. لأنه لو كان في القلب إيمان لإلتزمت الجوارح.. فمن لم ينكر المنكر بقلبه.. ليس في قلبه إيمان.. ومن يرتكب المعصية.. ينزع الإيمان من قلبه أثناءها «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**» (متفق عليه).

ومن أحب من عادى الله ورسوله. لم يكتب الإيمان في قلبه.. ومن دعا غير الله.. خرج الإيمان من قلبه.. نعم الإيمان والتقوى في القلب.. ولكن القلب التقي يأمر الجوارح بالطاعات.. فيدل على وجوده.. ونوعه.. ومقداره.

قلوب غليظة!

جاء وصف النبي صلى اللّه عليه وسلم في التوراة: «**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق**» (البخاري).

ـ وهل (الغلظة) يوصف بها القلب؟

ـ هذا ما نفاه اللّه عز وجل عن رسوله صلى اللّه عليه وسلم في كتابه: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾ (آل عمران).

علاقتي بزميلي في العمل شبه رسمية، وذلك أننا لا نتفق في كثير من الأفكار، ورغم ذلك يسألني أحياناً عن أمور في العقيدة.

ـ ماذا عن اللغة؟!

ـ (الغلظة).. عكس (الرقة).. وغلظ الزرع: اكتمل وخرج فيه الحب وغلظ الرجل: اشتد، وغلظت الأرض كانت غير سهلة وغلظ الخُلُق: اشتد وصعب، و(غلظ عليه) اشتد وعنف، هو غليظ وجمعه (غلاظ).. وكلاهما ورد في كتاب اللّه.

ـ وماذا يمكن أن يوصف (بالغلظة)؟!

ـ جاء في كتاب اللّه وصف العذاب بأنه (غليظ).. ووصف ميثاق الزواج بأنه (غليظ)..

أحضر الخادم ما طلبناه من شاي وقهوة.. تابعنا حوارنا قبل أن يبدأ اجتماعنا بانتظار بقية أعضاء اللجنة.

ـ فالمؤمن لا يوصف بغلظة القلب، ولا غلظة الخُلق، ولا بالغلظة عموماً، وإنما في مواقف القتال فحسب، وبين النبي صلى الله عليه وسلم أنه من صفات أهل النار فقال صلى الله عليه وسلم: «**أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع**» (السلسلة الصحيحة) ـ فالمؤمن هين لين رقيق القلب لا سيما مع إخوانه.. ففي الآية من سورة آل عمران: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ ﴾ (آل عمران). أي برحمة من الله (لنت لهم)، فالرسول صلى الله عليه وسلم كان ألين الناس مع المؤمنين خلقاً، ولساناً، وتعاملاً، وكل ذلك من رحمة الله به وبالمؤمنين.

وصل أحد الذين ننتظرهم للاجتماع.. بعد التحية اقترح علينا إتمام حديثنا حتى يصل الرابع.

ـ وكذلك وصف الله المؤمنين بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ (الزمر). وهذا لا ينافي الحزم في موضعه، والغلظة في مكانها، والشدة عند الحاجة إليها، ولذلك أمر الله المؤمنين عند تطبيق الحدود ألا تأخذهم الرأفة بقوله: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (النور).

- وهل هذه الصفة فطرية أم مكتسبة؟!

- قد تكون فطرية، ولا شك أنه يمكن اكتسابها، فمن رزقه اللّه قلباً ليناً فليحمد اللّه، ومن لم يكن كذلك، فليرقق قلبه وليلين أخلاقه بالممارسة ودعاء اللّه عز وجل.

قلب مهتد

منذ رمضان الفائت وهو ملتزم صلاة الجماعة في المسجد لم أعرف اسمه رغم أنه كان يتحدث إلي كل يوم.. حتى بلغنا العشر الأواخر، عرفت اسمه (أسعد) يسكن في القطعة الجديدة من منطقتنا.. إلتقيته ـ مصادفة ـ بعد صلاة العشاء في الممشى الموازي للبحر.. كان يتريض ركضاً.. صافحني.. استأذن أن يرافقني مشياً.. أسعدني ذلك..

ـ هل تعلم أنني سابقاً كنت من القائلين بأن اللّه إن أراد هدايتي سأهتدي.. وأنني لم ألتزم الصلاة في السابق بسبب أن اللّه لم يكتب لي الهداية؟

ـ ثم ماذا حصل؟!

حدثت نفسي بأن ألتزم الصلاة في المسجد في رمضان.. وكانت نيتي أن ألتزم صلاة التراويح في المسجد.. ولكن سمعت خطبة خرجت منها بأن الالتزام بالصلوات الخمس أولى من الالتزام بالتراويح.. وبالفعل.. إلتزمت بالصلوات الخمس في المسجد.. حضرت الدروس.. قرأت القرآن.. قومت قراءتي بمساعدة المؤذن جزاه اللّه خيراً.. حفظت سورة الكهف.. وسوراً أخرى من الجزء التاسع والعشرين والثلاثين.. وها أنا ذا إن فاتتني صلاة الجماعة في المسجد.. كأنما نقصني شيء..

ـ أسأل اللّه أن يثبتك ويزيدك..

توقفنا عند بائع المثلجات.. أخذت عبوتي ماء.. تابعنا السير..

ـ هل تعلم. أنني عرفت معنى من أراد الهداية وسعى لها صادقاً.. هداه الله؟!

ـ كيف؟ اشرح ذلك.

ـ سابقاً كنت أقول.. لو هداني الله.. لصليت.. ولكن عندما بدأت إلتزام الصلاة شعرت أن الله يوفقني لأمور أخرى مع الصلاة.. فأتعلم شيئاً جديداً.. وأحفظ سوراً جديدة.. وأقرأ القرآن بطريقة جيدة.. فالهداية تبدأ بأن يأخذ الإنسان الخطوة الأولى.. إلى الله.. وتأتي الهداية ميسرة سلسة.. في قلبه..

ـ هذا مصداق حديث النبي صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل: «**من تقرب إلي ذراعاً تقربت إليه باعاً..**». (أصله في البخاري).

ـ وهل تزول الهداية بذات الطريقة؟.. أعني بترك الطاعات..

ـ نعم... فالإيمان ـ الهداية.. تزيد وتنقص.. وهناك أسباب لزيادتها وأخرى لنقصانها.. ومن الأسباب الدعاء والاستعانة بالله دائماً والقلب المهتدي يحتاج إلى الثبات على الحق حتى لا ينقلب..

ـ أذكر آية في سورة التغابن.. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ ما معناها؟

ـ الآية كاملة هي: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ (التغابن).. والمعنى أن المصيبة إذا نزلت فإنما بإذن الله ومشيئته، وقد سبق كتابتها قبل خلق السموات

والأرض.. وفي ذلك تسلية للمؤمن بأنها كان لابد وأن تنزل.. فيكون موقفه.. أن يؤمن بقضاء الله ويصبر (ومن يؤمن) فيحتسب.. فإن فعل ذلك (يهد الله قلبه) بمعنى ينزل في قلبه الطمأنينة وعدم الجزع وعوضه مما فاته من الدنيا هدي في قلبه ويقيناً صادقاً.. فلا يقول إلا خيراً ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾ (البقرة).. ولا يعمل إلا خيراً.. فتكون المصيبة التي نزلت سبباً في زيادة إيمانه ويقينه.. وهذا ليس إلا للمؤمنين.. لأن الكافر إذا نزلت به المصيبة جزع.. وهذا دليل عدم إيمانه الصحيح بالله.. فكما أن التقوى في القلب لها آثارها.. كذلك الهداية في القلب لها آثارها والهداية.. ينالها من يبذل أسبابها.. ولا يظلم ربك أحداً..

قلوب صاغية

لغةً (صغا).. مال ويقال صغت الشمس (مالت) وصغا إلى القوم.. كان هواه معهم وصغا على القوم.. كان هواه مع غيرهم.. وكذلك (صغي) ويقال: أصغى إليه برأسه وبأذنه: أمالها يسمع.. و(صاغية) الرجل خاصته الميالون لاتباعه.

هكذا أجبت ابن أخي الصغير وقد سألني عن (صغا) وردت في بيت من الشعر ضمن واجب اللغة العربية.

ـ هذا ما ورد في المعجم الوسيط.. وجاءت في كتاب الله مرتين في سورة التحريم ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤)، ومرة في سورة الأنعام ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (الأنعام).

ـ وما المعنى في الآية الأخيرة؟

كانت السائلة شقيقتي..

ـ هذه الآية متعلقة بالتي قبلها.. حيث يقول عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (الأنعام). أي لتميل قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وأسماعهم وليحبوه ويريدوه، وليكتسبوا ما يكتسبون فإن الله سيجزيهم سوء العذاب على عملهم هذا.

ـ والآية في سورة التحريم.. نزلت عندما أتى رسول اللّه مارية القبطية (أم إبراهيم) في بيت حفصة وفي نوبتها فوجدت حفصة في نفسها.. فقال لها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «**ألا ترضين أن أحرمها فلا أقربها**» قالت: بلى.. قال صلى اللّه عليه وسلم: «**فلا تذكري ذلك لأحد**» فذكرته لعائشة فأظهره اللّه عليه.. وفي رواية أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش يشرب عندها عسلاً، فتواطئت عائشة وحفصة أن ينكرا عليه صلى اللّه عليه وسلم شرب المغافير.. فحرمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على نفسه.. فنزل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١﴾ (التحريم).

ـ وهل مطلوب من القلوب أن تكون صاغية؟

ـ نعم.. صاغية للحق... لأوامر اللّه عز وجل ولهدي رسوله صلى اللّه عليه وسلم.

مائلة إلى هذا الحق محبة له مريدة له وهي صفة من مكّن اللّه الإيمان في قلبه. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ (الحجرات) وهو القلب الذي يذوق حلاوة الإيمان.. كما أخبر الرسول صلى اللّه عليه وسلم: «**ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار**» (متفق عليه).

ـ وهل الأفئدة هي القلوب؟ وما الفرق؟

ـ نعم (الأفئدة) جمع (فؤاد).. وهو القلب.. كما قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ (النجم) ومنه قول الله تعالى: ﴿فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (إبراهيم).. فالناس لا تأتي إلى بيت الله الحرام وحسب.. بل تهوي قلوبهم إلى هذا المكان وتسرع إليه راغبة.. ومنه قول الله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾﴾ (الهمزة).. أي يحصل ألمها إلى أصل الناس.. وأفئدتهم (قلوبهم).. فلا يمنع سمك جلودهم وضخامة أبدانهم العذاب من أن يخترق كل ذلك ويصل إلى الأفئدة.. فالمطلوب من القلوب والأفئدة أن تكون صاغية (مائلة) إلى الله ورسوله.. محبة لهذه الأوامر.. منقادة لها.. وكلما كانت (أتقى) كانت (صاغية) أكثر لله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قلوب لاهية..

(لاهية).. (غافلة).. (في غمرة)..

- هذه ثلاث صفات مذمومة للقلب.. في الأولى قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾ (الأنبياء).. أما (الغفلة).. فيوصف بها الإنسان أكثر من القلب.. ولم ترد مع القلب إلا مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ (الكهف).. أما الثالثة: فقد جاءت في قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (المؤمنون).

- وما (الغمرة)؟!

- (الغمر) من الماء خلاف (الضحل) و(غمره) علاه وستره.. وليل (غمر) شديد الظلمة، و(الغمرة) الضلالة التي تغمر صاحبها.. أما (الغفلة) فهي الإهمال من غير نسيان.. و(لهى).. اشتغل بالشيء ونسي غيره..

وهكذا يتضح الفرق بين هذه القلوب.. فالقلوب اللاهية هي المنشغلة عن الله بأمور أخرى.. وربما لهى بعضهم بالأعمال الدنيوية عن الآخرة.. وإن كانت مباحة تصبح محرمة.. ويأثم بانشغاله عن الواجب بالمباح.. أما إن كانت محرمة فالأمر أشد.. ولا يزال بعضهم في (لهو) عن الآخرة حتى تأتيه منيته وهو في لهوه..

كان المجلس عامراً بالحضور تلك الليلة.. ربما لأنها كانت الأخيرة قبل سفر كثير من مرتادي الديوان لأداء فريضة الحج.. وعادة ما تتوقف الجلسات إلى ما بعد العيد بأسبوع.. كان الأغلب ينصت للشرح.. تابعت حديثي..

أما القلوب التي في غمرة.. فهي التي علاها الضلال وسترها الغي وغشاها الظلام.. وهي تتفاوت بين قلوب كثرت ذنوب أصحابها فغطاها (الران).. وبين قلوب في (أكنة) وهي جمع (أكنان).. وهو الغطاء كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥﴾ (فصلت).. في أغطية محكمة، فلا يصل لها الحق.. فهي (مغمورة) وهي في (غمرة) قد تكون عميقة.. كقلوب الكافرين.

- والتي في (غفلة)؟!

عندما نقرأ كتاب الله نجد أن وصف الغفلة جاء للناس ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ٧﴾ (يونس).. ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾ (الأعراف).. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦﴾ (الأعراف).. هؤلاء.. أهملوا أوامر الله.. من دون نسيان.. يخبر الله تعالى عن حال بعض الناس يوم القيامة ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ (ق).. لقد كنت تعلم أنك ستؤول إلى هذا.. ولكنك أهملت الاستعداد له..

ولو أردنا ترتيب الأمور.. ربما نستطيع أن نقول: من (لهى) بالدنيا عن الآخرة غفل عنها.. فيصبح قلبه في (غمرة).. فالقلب اللاهي يجعل الإنسان غافلاً.. ويغمر قلبه بالضلال.. وكلها صفات ذميمة ينبغي على المرء أن يحترز منها..

- ولكن أحدنا ينشغل شيئاً فشيئاً بالدنيا.. فإذا به أبعد ما يكون عن الآخرة.

- وهكذا يريد الشيطان.. أن يستدرج ابن آدم بالحلال.. ثم المباح.. ثم الحرام.. حتى إذا تمكن منه.. يريد أن يرجع، فلا يستطيع إلا أن يلجأ إلى اللّه بصدق وإخلاص.

قلوب مخبتة

فصل الشتاء أحب الأزمان إلي.. رغم أنه أقصر الفصول في الكويت.. انتهينا من صلاة العشاء قبل السابعة ليلاً، ثم توجهنا إلى أحد المخيمات حيث أعلن المنظمون عن محاضرة لأحد علماء مصر كنت أقرأ له وأسمع محاضراته ولكني لم ألتقه يوماً..

كالعادة استخدمنا مركبة صاحبي ذات الدفع الرباعي وتوجهنا جنوباً.

- ما معنى (المخبتين)؟! أعلم أنها وردت في كتاب الله..

- نعم وردت في سورة الحج.. عند قوله تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الحج). و(المخبتون): هم الخاشعون المتواضعون المطمئنون و(الخبن) من الأرض: ما انخفض واتسع.. وفيه رمل.. والوادي العميق الممدود فيه نبات.. و(الإخبات) هو التواضع والخشوع ويوصف به الإنسان وكذلك القلب.. كما قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الحج). (فإخبات) القلب نتيجة للإيمان.

- ولكني سمعت بأن (المخبتين).. فسر معناها قول الله تعالى في الآية بعدها.. ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الحج).

أعجبني.. بل أدهشني.. استدراك صاحبي.. ولم أخف إعجابي.

ـ أحسنت يا (أبا سالم).. نعم هذا أفضل تفسير للمخبتين.. وكل ما ذكرت لك.. كان من باب اللغة.. ولكن أجمل تفسير للقرآن هو القرآن.. وفي الآية.. الخوف من اللّه، الصبر على القضاء إلتزام أوامر اللّه.. لا سيما الصلاة والزكاة.

أبطأ صاحبي سير المركبة.. حيث كانت الحركة شبه متوقفة أمامنا لم نشك في أنه حادث مروري، ولكننا لم نخمن مدى جديته، بلغنا موقع الحادث.. استرجعنا ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ (البقرة) كان على الجانب الأيمن جسد ممدود مغطى.. ومركبة منقلبة رأساً على عقب.. وأخرى تهشمت واجهتها على بعد عشرين مترا يسار الطريق، تابعنا السير، بعد صمت من رهبة الموت وحديث عن هذه الحوادث التي تحصد الأرواح كل يوم.

ـ الآية الأخرى في سورة الحج.. أتت بعد قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ ، فالقرآن كتاب اللّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. ومع ذلك الذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه.. فيضلون..

بسبب المرض الذي في قلوبهم.. أما المؤمنون فيعلمون يقيناً لا شك فيه أنه الحق فيؤمنوا به ويصدقوه ويتبعوه وتخضع قلوبهم لأوامره وتذل له.. فتكون النتيجة أنهم يتوصلون بالإيمان والهداية إلى الصراط المستقيم في الدنيا وهذا يوصلهم إلى جنات النعيم في الآخرة.

ـ وهل وردت (أخبت) في غير هذين الموضعين من سورة الحج.

ـ نعم.. وردت في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ (هود).. اللهم اجعلنا من المخبتين.. وارزقنا قلوباً مخبتة..

قلوب طاهرة.. وأخرى نجسة!!

(الطهارة).. عكس النجاسة و(طهر).. نقي من النجاسة.. و(الطاهر).. ويقال رجل (طُهر) الخلق.. و(الطهور) الطاهر في نفسه المطهر لغيره.. وورد في كتاب الله في تطهير الذات.. والقلب.. والثوب.. والبيت العتيق.. ويكون للبدن والقلب وفي القلب أبلغ..

- لنستعرض بعض آيات القرآن في الطهارة..

كنت وصاحبي واثنان من رواد مسجدنا في المجلس وكان الحديث في مكان قريب من مكتبة صغيرة مكونة من ثمانية أرفف امتلأت جميعها بمجلدات إسلامية.. جلبت المعجم المفهرس لألفاظ القرآن..

- يقول الله تعالى مخبراً عن مريم - عليها السلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (آل عمران).

قاطعني..

- لماذا تكررت.. (اصطفاك)... طهرك.. (اصطفاك)؟!

- الاصطفاء.. هو اختيار الأفضل.. وانتقاؤه لتميزه.. فالاصطفاء الأول عام لتميز ذاتي فيها.. والثاني: بسبب تطهيرها.. وفي تفسير ابن كثير: (اصطفاها لكثرة عبادتها.. واصطفاها ثانياً مرة بعد مرة لجلالتها على نساء العالمين).. الشاهد أن الله (طهرها) أي نقاها من كل رجس ظاهر وباطن..

تابعت حديثي عن آيات التطهير..

ـ وقال الله تعالى عن الزكاة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (التوبة).. فالزكاة تطهر النفس.. وكذلك تطهر المال.. وفي النفس أولى كقول الله تعالى ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ (الليل).

وقال تعالى عن المطر: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ (الأنفال).. وهنا التطهير الحسي.. فالمطر طاهر.. مطهر.. فهو طهور.. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾﴾ (الفرقان).

وقال تعالى بعد أن ذكر المنافقين.. واليهود: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ (المائدة).. وذلك بسبب أنهم آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.. وبسبب أنهم يحرفون الكلم عن مواضعه وقلوبهم (نجسة) وفيها (رجس).. والرجس هو (القذر).. و(النجس) أخص من (الرجس).. أصابته (نجاسة).. وهو أشد من القذارة.. فقد تكون القذارة طاهرة.. ولكن (النجاسة) قذارة غير طاهرة..

قاطعني أحد الضيوف..

ـ سمعت أن (رجس) بفتح الجيم.. أصدر صوتاً عظيماً..

ـ نعم.. لغة.. (رجس).. صوت الرعد.. أو الجيش.. و(رجس) البعير.. هدر شديداً.. وغلب استخدامه في (القذارة)..

عقب صاحبي..

ـ أظن أن (قذارة) القلب من أشد الأمراض.. و(طهارة) القلب من أسمى الصفات.. القلب (النجس).. والقلب الذي فيه (رجس).. يجعل صاحبه.. يمكر.. وينافق.. ويخدع.. ويكذب.. ويغش.. ويتلون.. ويفتري.. ويراوغ.. مع آيات الله وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.. ظاهره الوصول إلى الحق وباطنه تحقيق مصلحته الذاتية.. والقلب الطاهر.. قلب نقي.. سليم.. طيب.. رقيق.. رحيم.. صدوق.. يخطئ فيعترف.. ويعتذر.. ويستغفر.. يحتار.. فيبحث.. ويسأل.. ويتعلم.. يؤمن بالله.. ويرضى بقضائه.. ويظهر ما يبطن..

كان صاحبي متأثراً بحديثه.. تركناه يكمل..

ـ ترى صاحب القلب (القذر).. ربما يصلي.. وكان المنافقون يصلون مع النبي صلى الله عليه وسلم.. ولكنه يبغض أهل الصلاح.. ويكره أحكام الشريعة.. لا يخضع لأوامر الله.. ولا يرضخ لأحكام الشريعة.. تراه عوناً لمن يحارب الله ورسوله.. بعيداً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. ويظن أنه يحسن صنعاً..

نسأل الله العافية..

اللهم.. إهد قلبي

في موسم الحج ألقى أحد تلاميذ الشيخ بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ خاطرة عامة، قال في معرض كلامه:

رأيت الشيخ ذات مرة يطوف بالبيت، فقلت لأقترين منه لأسمع ما يدعو به.. يقول: فاقتربت منه دون أن يشعر بي.. فإذا به يكرر.. «**اللهم أصلح قلبي.. اللهم أصلح قلبي.. اللهم أصلح قلبي**» لا يزيد عليها.. بعد الخاطرة التي ألقاها وكانت بعد صلاة العشاء.. اتفقت صاحبي أن نشتري عشاء مجموعتنا من (التميس والفول) ابتدرني صاحبي.

ـ لقد أعجبني الدعاء.. (اللهم أصلح قلبي).. فإذا صلح القلب صلح سائر الجسد.. وإذا صلحت أعمال القلب صلحت أعمال الجسد.

ـ نعم.. القلب سيد الأعضاء.. فيه الصلاح والضلال.. فعمى القلب.. هو العمى.. وقفل القلب.. هو القفل.. وجهل القلب.. هو الجهل. وقسوة القلب هي القسوة ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ (الحج)، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ (محمد)، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ (الأعراف)، ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ (الزمر).

ـ لنخرج عن هذا النمط وأسألك عن إعراب (اللهم اهد قلبي)؟!

ـ اللهم.. يا الله.. يا أداة نداء ولفظ الجلالة منادى مرفوع، وعلامة رفعه الضمة والميم المشددة ميما بدل من يا..

إهد: فعل أمر ـ دعاء ـ مبني على السكون حذف حرف العلة من آخره وأبدل بالكسرة.. والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت يعود على لفظ الجلالة.

قلبي: مفعول به منصوب بالفتحة وهو مضاف والياء مضاف إليه مجزوم بالكسرة المقدرة.

قاطعني مستغرباً:

ـ أراك أخذت الأمر جد وأعربت الجملة «بتمتع».

هذه إحدى الأمور التي فعلاً أشعر معها بجمال اللغة.

دعنا من ذلك فإنني لم أفهم أكثر ما قلت في الإعراب لنرجع إلى شرح موضوعنا..

كان الخباز قد ناولنا حاجتنا وبدأنا رحلة العودة بعد أن تقسامنا الأحمال..

ـ هداية القلب من أعظم النعم.. بل هي النعمة الأعظم على الإطلاق.. كما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم: «**ما أعطي ابن آدم نعمة أعظم بعد الهداية من العافية**» (متفق عليه).. وفي الآية: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾ (التغابن).

أي ما يصيب المرء فبإذن الله، فمن آمن بهذه الحقيقة.. أي أن المصيبة وقعت بقدر الله فصبر واحتسب واسترجع عوضه الله عما فاته يقيناً في قلبه.. وهُدى ورضا في قلبه فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه

فيطمئن وتكون مصيبته في ميزانه كما أخبر الرسول صلى اللّه عليه وسلم: «**عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له إن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له وإن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**» (الشيخان).

- كلمة (يهدي).. (ويهدي) لها معان متنوعة في القرآن.. أليس كذلك؟

- بلى.. ويمكن إجمالها في معنيين.. يهدي.. يبيّن.. أو يتضح.. ويظهر.. كما في قول اللّه عز وجل: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾﴾ (طه)، وكذلك قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى).. تبين.. وترشد.. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾ (الإسراء).

والمعنى الآخر.. التوفيق لقبول الحق واتباعه.. هذا لا ينسب إلا إلى اللّه فنفاه عن رسوله صلى اللّه عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ (القصص).. وهذا المراد من قوله في سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾.. فالبيان للجميع واضح، ولكن المطلوب التوفيق لقبول هذا الحق واتباعه وتطبيقه.. وذلك يتأتّى باتباع أوامر اللّه على ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع الدعاء طلباً للهداية.. ومن بذل أسباب الهداية نالها.. ومن أعرض عن الهدى أعرض اللّه عنه فضل في الدنيا وهلك في الآخرة.

الفهرس